السلاطين الشعراء

قصيدة السلطان "مراد الثالث" (Murat III)

"أفيقي يا عيني"

(ما بين رسائل الزهد ومحاسبة النفس) نموذجًا

د. البدري عباس أحمد عزب

مدرس اللغة التركية وآدابها بقسم اللغات الشرقية

كلية الأداب،جامعة اسيوط

مستخلص:

يتناول هذا البحث موضوعًا مهمًا من موضوعات الأدب التركي، وهو عن السلاطين الشعراء، فقد تناولتُ قصيدة السلطان "مراد الثالث"؛ "أفيقي يا عيني" بالدراسة نموذجًا، وقسمتُ البحث على مبحثين: تناولتُ في المبحث الأول نُبذة عن حياة السلطان "مراد الثالث" مولده ووفاته، ونُبذة مختصرة عن فترة سلطنته، كما تناولتُ شخصيته الأدبية وحبَّه للشعر والأدب، أمَّا المبحث الثانى فتناولتُ فيه النزعة الصوفية لدى السلطان "مراد الثالث" من خلال أشعاره وتأثره بالتصوف في كتاباته، والتي كانت ظاهرةً بجلاء، وأوضحتُ ذلك من خلال شرح لأبيات القصيدة في نقاط مباشرة محددة، كما تناولتُ كذلك بعض الأغراض البلاغية التي شاعتْ في القصيدة، وحاولتُ جاهدًا استنباط بعض الرسائل التي تتضمنها القصيدة، والتي أرسل بها السلطان "مراد الثالث" هادفًا من خلالها النصح والإرشاد للأمة والشعب ولنفسه أيضًا، كما بَيَّنْتُ العلاقة الوثيقة والصلة الروحية بين السلطان وربِّه، وحرصه على المواظبة على صلاة الفجر لوقتها، والتي ألهمته لكتابة هذه القصيدة بعد أنْ فرط السلطان في أدائها ليوم واحد على وقتها.

Abstract

This research deals with an important topic of Turkish literature, which is about the poetic sultans. Sultan Murad III's poem "Awake, my eyes" was studied as a model and the research was divided into two sections. His love for poetry and literature. As for the second topic, I dealt with the Sufi tendency of Sultan Murad III through poetry and his influence on Sufism in his writings, which was clearly visible. She explained this through an explanation of the verses of the poem through specific direct points. It also addressed the rhetorical purposes that were common in the poem and tried hard to elicit some of the messages contained in the poem, which Sultan Murad III sent with a purpose through advice and guidance to the nation, the people and himself as well as the close relationship and connection. The spiritual relationship between the Sultan and his Lord and his keenness to attend the

Fajr prayer on time, which inspired him to write this poem after the Sultan neglected to perform it for one day beyond its time.

مقدمة

إنَّ هذا الموضوع الذي نحن بصدد دراسته يستحق منا أبحاثًا أكثر مِمَّا كُتِبَ عنه من قبل؛ لأنَّ السلاطين الشعراء العثمانيين كانت لهم أشعارٌ جميلةٌ في موضوعات شتى، وموضوع بحثنا تطرقنا فيه لشاعر كبير كتب الكثير من القصائد، وكان من أهم تلك القصائد القصيدة التي نحن بصدد دراستها؛ وهي قصيدة "أفيقي يا عيني"، تناولتُ فيه تعريفًا بحياة السلطان "مراد الثالث"، وتطرقنا إلى حياته الأدبية، وأنَّه كان يجيد الكتابة باللغات العربية والفارسية والتركية في أشعاره؛ مِمَّا يدلل على مهارته وإتقانه لآداب اللغات الثلاث، ولما تناولتُ هذه القصيدة والمصطبغة بالصبغة الصوفية في نصها وروحها -تناولت بالشرح بعضًا من الرسائل التي هدف السلطان "مراد الثالث" بثها من خلال قصيدته إلى المؤمنين وهو يحثهم على أهمية صلاة الفجر لوقتها، وما الحال إذا صلاها المؤمن لوقتها؟ وما الجوائز على ذلك؟ وكذلك حال مَنْ تخلف عن أدائها لوقتها وجزاؤه، وتعريض نفسه للخسران المبين. وكان لهذه الرسائل الداعية للزهد والعزلة تقربًا إلى الله ورسائل أخرى كثيرة كان عنوانها أن العود الحميد والتوبة إلى الله واجبتان على المؤمنين – دلالات مهمة عرفنا من خلالها جانب الزهد عند السلطان"مراد الثالث".

أهمية الموضوع:

لما كان السلاطين الشعراء هم أحد ركائز الأدب التركي، ولهم أعمالهم المتنوعة ما بين شعر ونثر ونتاجاتهم موجودة ومتداولة على الساحة الأدبية التركية – وجدتُ أنَّ تناول موضوع خاص بأحد هؤلاء السلاطين ودراسة جوانب مهمة لإحدى قصائده التي تتناول أحد الموضوعات الشيقة – مناسب لأنْ أُجْرِي عليه بحثًا، مقدمًا بين يدي الباحثين والقراء شروحًا للجوانب الأدبية واللغوية وكذلك الصوفية، والتي كانت كلها موضوعات متباينة بين ثنايا القصيدة.

فرضيات البحث: كان منهجي خلال تناول هذا البحث يعتمد على المنهج الوصفي التحليلي، ولاسيَّما أنَّ البحث يحوي كثيرًا من الجوانب الأدبية، مثل: البلاغة، وسهولة الألفاظ، كذلك روح القصيدة وحال كاتبها، وتلك الحالة الصوفية التي تأثر بها السلطان "مراد الثالث" في أثناء كتابته للقصيدة.

مدخل

إنَّ السلطان "مراد الثالث" هو أحد أهم سلاطين الدولة العثمانية، والذي استمر حكمه قرابة واحد وعشرين عامًا، وكان من السلاطين الذين يحبون العزلة والابتعاد عن الناس؛ خوفًا على حياته؛ لأنَّه قتل خمسة من إخوته بعد جلوسه على عرش السلطنة؛ فكان لزامًا عليه حتى يحافظ على حياته اتخاذ الحيطة والحذر دائمًا، وهذا ما دعاه لأنْ يفكر كيف عليه أن يقضي وقته

في شيء مفيد أثناء قضائه أكثر وقته وهو في عزلة، فكان للعبادة نصيبٌ كبيرٌ، وكان من أهم الفرائض التي يحافظ عليها لوقتها هي صلاته للفجر، ولمَّا فاتته يومًا واحدًا أصابه الندم والحزن، اللذان دفعاه لأنْ يكتب قصيدته "أفيقي يا عيني"، والتي بالفعل عبَّر من خلالها عن شخصية أديب لديه حس عالٍ للتعبير عن حالته الحزينة ومرارة ندمه على فوات الخير الكبير؛ بسبب نومه وغفلته عن أداء صلاته لوقتها، لا سيما أنَّها صلاة الفجر، التي تتنزل فيها الرحمات، وتمنح فيه العطايا من الله لعباده، كل هذا كان له تأثيرُه الإيجابيُّ الذي انعكس على كتابته لقصيدة جميلة من عدة جوانب، وكان لهذه العظات والعبر والتي أفدنا منها بين ثنايا بحثنا فائدة كبيرة؛ لذا أعتقدُ أنَّها من أجمل القصائد الشعرية التركية التي كُتِبَتْ وعَبَّرَتْ عن حال صاحبها.

المبحث الأول:

- التعريف بالسلطان "مراد الثالث":

هو السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني *بن سليمان القانوني* بن سليم الأول* بن بايزيد الثاني* بن محمد الفاتح *بن

* سليم الثاني: هو السلطان العثمانى الحادى عشر، والابن الثاني للسلطان سليمان القانوني من جاليته "خُرَّم "ولد في مايو ١٥٢٤ م في قصر طوب قابي باسطنبول، تولى الحكم ١٥٦٦ م، أشار المؤرخون الغربيون أن وفاته بسبب إفراطه في تناول الخمر إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أنه توفي بسبب انزلاق قدمه أثناء استحمامه في قصر طوب قابى، وتوفي على إثر هذا الحادث في يوم ١٥ ديسمبر عام ١٥٧٤ م.

مـــراد الثـــاني بـــن محمد الأول چـــلبي بـــن بايزيـــد الأول بـــن مـــراد الأول بـــن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.

وهـــو الســـلطان الثـــاني عشـــر مـــن ســـلاطين الدولـــة العثمانيـــة، وُلِـــدَ عـــام ٩٥٣ هـــ -٤ يوليـــو ١٥٤٦م، وتـــوفي ١٦ ينـــاير ١٥٩٥م،

---

*سليمان القانوني: ولد في ٦ نوفمبر ١٤٩٤ م في طرابزون بتركيا، وهو السلطان العاشر للدولة العثمانية، التى بلغت في عهده أقصى اتساع لها، وصارت أقوى دولة في العالم، وكانت فترة حكمه أطول فترة من بين سلاطين بني عثمان، وكان يشتهر بكتابته للشعر وحبه له، تولى الحكم عام ١٥٢٠م، وتوفي عام ١٥٦٦ م ؛أي أن حكمه استمر لمدة ٤٦ عامًا.

*سليم الأول: ولد عام ١٤٧٠ م، وهو أصغر أولاد السلطان بايزيد الثاني، تولى الحكم عام ١٥١٢ م، وذلك بعد اضطرابات بالدولة العثمانية أواخر عهد والده بايزيد الثاني نتيجة صراع أبنائه، وتوفي عام ١٥٢٠م .

* بايزيد الثاني: ولد في ٣ ديسمبر عام ١٤٤٧م باليونان، وهو أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح، وكان دائمًا ما يميل إلى السلم أكثر منه للحرب، تولى الحكم عام ١٤٨١ م حتى وفاته عام ١٥١٢م، ودفن بجامع بايزيد الثانى باسطنبول.

* محمد الفاتح: ولد عام ١٤٢٩ م، وهو الملقب بـ"صاحب البشارة" ،"الملك المجاهد"، "السلطان الغازي أبى الفتح والمعاني "، وهو سابع سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم عام ١٤٥١م، وتوفي عام ١٤٥٣ م، وأول من حمل لقب قيصر الروم من الحكام المسلمين عمومًا وسلاطين الدولة العثمانية خصوصًا، ولقب بصاحب البشارة؛ بسبب نبوءة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- والتي يقول فيها "تفتح القسطنطينية فنعم الأمير أميرها"، والتي تحققت على يديه عام ١٤٥٣م، ولقب في أوروبا بلقب "التركي الكبير"و"إمبراطور الترك "، وذلك يعود لإنجازاته العظيمة وانتصاراته العسكرية القديمة التي حققها على القوى المسيحية الكبرى، ويرمز هنا بالتركى طبقًا لمعتقـــــــــد الأوروبيـــــــــين آنـــــــــذاك إلـــــــــى المســـــــــلم (Wiki.HTTPS://ar.m.wikipedia.org)

وتولى الخلافة عام ٩٨٢ هـ - ١٥٧٤م بعد وفاة أبيه، واستمر حكمه حتى وفاته[١].

ويذكر أنَّه كان لديه أكبر عدد من الأبناء كسلطانٍ في التاريخ العثماني، ويقال إنَّ عددهم بلغ مائة ابن.[٢]

وكان لقتله إخوته الخمسة عقب توليه الحكم أصداءً قوية في شتى بقاع الدولة العثمانية، فخوفه من نزاعهم له على العرش دفعه لفعل ذلك.

ويذكر أنَّه لم يكن أول مَنْ صنع مثل هذا، لقد كانت هذه سُنةً متبعة بين سلاطين الدولة العثمانية.

وكان تقيًا ورعًا حتى أنَّه أمر بمنع شرب الخمر إلَّا أن جنودًا من الإنكشارية ثاروا على هذا القرار؛ فتراجع عنه، ويقال إنَّ جده "سليمان القانوني" سماه بنفسه؛ لأنَّه كان أول حفيد ذكر له، وبلغ أشده واستوى، وعُيِّنَ واليًا على "سنجق آق شهر"* ، وكان هذا تقليدًا في الدولة العثمانية بأنْ يدربوا الأمراء على أمور الولاية والحكم. بعدها تولى إمارة "سنجق مانيسا"* (Manısa)، وظل

* - مدينة أق شهر (Ak şehir): إحدى المدن التركية، تبلغ مساحتها ١٤٤٢ كم ، ترتفع عن سطح الأرض ١٠٥٠ م، تبعد عن مدينة ١٣٥ كم كانت منذ القدم مركزًا تاريخيًا مهمًا. (Http//Wiki.tr.m.wikipedia.org)

* - مدينة مانيسا (Manısa): هي إحدى المدن التركية الواقعة ضمن محافظة مانيسا غرب تركيا، في وسط منطقة بحر إيجه، ويبلغ عدد سكانها ٣٥٦٠٠٠ نسمة طبقًا لإحصائية ٢٠١٢م، وتبلغ مساحتها ١٢٣٢ كم، وتُعَدُّ مركزًا ثقافيًا وخدميًا، ومرت عليها الكثير من الحضارات القديمة، مثل: الرومانية، والإغريقية، والسلجوقية، وتقام فيها مهرجانات سنوية، وتضم نصبًا للسلطان محمد الفاتح، ويقع بها جبل سبيلوس، والذب يبلغ ارتفاعه ١٥٠٠م، كذلك

فيها طوال حياة جده "سليمان" وأبيه "سليم الثاني"، وتزوج في مانيسا من جارية من جزيرة البندقية، وهي "صفية سلطان"، وكان يحبُّها حبًّا جمًا، كما أنَّه كان يفضلها على كل النساء، وأنجبت له ابنه محمد، والذي خلفه على عرش الدولة، وأصبح فيما بعد "محمد الثالث".

واشتهر عن السلطان "مراد الثالث" أنَّه كان وفيًا لزوجته "صفية سلطان" إلَّا أنَّ أمه "نوربانو" كانت تصرُّ على أن يكون له حريمٌ أخريات، وأنجب السلطان "مراد الثالث" تسعة عشر ولدًا ذكرًا، بالإضافة لـ"محمد"، أعدمهم أخوهم "محمد" جميعًا يوم توليه العرش، كذلك أنجب ستًا وعشرين بنتًا، حدث لهن مثل ما حدث لإخوتهم التسعة عشر الذكور، أعدمن كلهن على يد أخيهن محمد يوم توليه العرش.

وكان يذكر عن السلطان "مراد الثالث" تعلقه بالمقدسات الدينية، فيذكر عنه أنَّه أعاد صنع منبر سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- من الرخام، وزُيِّنَ بأجمل الزخارف قبل إرساله إلى المدينة المنورة، وهو موجود بداخل المسجد النبوي حتى الآن.

- الجانب الأدبي لدى السلطان "مراد الثالث":

كان مهتمًا بالشعر والأدب منذ صغره، وكان متفوقًا في الشعر الديواني، وكانت أكثر أشعاره في حب الله والآخرة ومحمد -صلى الله عليه وسلم- والموضوعات الصوفية[٣].

يوجد بها بعض الأماكن التاريخية، مثل: الصخرة الباكية، والجسر الأحمر، والمقابر، والمعابد القديمة.

(Https//Mawdoo٣.com)

وكان للسلطان "مراد الثالث" دواوين كتبها بالعربية والفارسية والتركية، وكان يتقن العربية والفارسية إلى جوار لغته الأم اللغة التركية لدرجة أنَّه كان بارعًا في استخدام اللغات الثلاث للتعبير بلغة رصينة ومعانٍ جميلة على حد سواء، دون تميز للغةٍ عن الأخرى، وكان يستخدم أسماءً مستعارةً عند كتابة مثل هذه الدواوين، منها: "مرادي"، وكتب مؤلفًا عن الصوفية بعنوان "فتوح صيام"، وكانت قصائده في أكثرها تميل إلى التفكر والتدبر والموضوعات الدينية.

كذلك كان السلطان "مراد الثالث" بارعًا في فن الخط، وكان من بين المخطوطات لوحة "الآية"، ولوحة "الاستشهاد"، وهي معلقة حتى الآن في مسجد آيا صوفيا، كما له أعمال كتبها بخط يده موجودة في مكتبة جامعة إسطنبول ومتحف المؤسسة التركية للخط والفنون.

وللسلطان "مراد الثالث" ديوان" شعري يحمل عنوان "ديوان مراد التركي"، وهو أضخم ديوان بالنسبة للسلاطين الشعراء، ويحوي هذا الديوان ١٥٦٦ قصيدة شعرية غزلية، وكان يشبه السلاطين في أسلوب كتابته من حيث اللغة والأسلوب، وكانت قصائده تمتاز بلغة سهلة وأسلوب بسيط، وكانت الروح الصوفية الدينية غالبة على هذه الأشعار، وهذا ظاهر جلي في ديوانه٤.

وكان من أهم قصائده في الزهد والتصوف قصيدة "أفيقي يا عيني"؛ وهي مكونة من خمسة وثلاثين بيتًا، كتبها بسبب تأثره أنه استيقظ بعد صلاة الفجر، ولم يصلها لوقتها؛ فكان نادمًا حزينًا لما

فاته من خير وأجر، وكذلك خوفًا من عذاب الله، فكتبها تحت هذه المؤثرات النفسية ما بين حزن وخوف وخشية من عذاب الله؛ لذا كانت كلماتها معبرةً عن حالة من العذاب النفسي، وتأنيب الضمير، فكتبها بتعبيرات صادقة منبعثة من بين ثنايا خلجاته ونزعاته النفسية التي أراد أن يطفئ وطأة نيرانها بهذه الكلمات الصوفية الجميلة، فجاءت القصيدة معبرةً خير تعبيرٍ عن حاله ومكانه وزمانه.

– رسائل السلطان "مراد الثالث" إلى الأمة من خلال قصيدته.

المبحث الثاني:

– النزعة الصوفية لدى السلطان "مراد الثالث" من خلال قصيدته "أفيقي يا عيني":

نص القصيدة:

أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي،
أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي،
صدّقيني إنَّ ملك الموت قد يسلب الروح.
أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي،
أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي،

تستفيق كل الطيور عند الفجر،
وبلغتها تبدأ التسبيح،
والجبال توّحد وكذا الأحجار والأشجار.

أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي،
أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي،

تفـــــــــــــتح أبـــــــــــــواب الســـــــــــــماوات،
وتنـــــــــــــزل الرحمـــــــــــــة علـــــــــــــى المـــــــــــــؤمنين،
ولمـــــــــــــن قـــــــــــــام الفجـــــــــــــر تعطـــــــــــــى الحلّـــــــــــــة،
أفيقـــــــــــــي يـــــــــــــا عينـــــــــــــي، مـــــــــــــن الغفلـــــــــــــة أفيقـــــــــــــي،
أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي.

هـــــــــــــذه الـــــــــــــدنيا فانيـــــــــــــة، فحـــــــــــــذاري أن تنخـــــــــــــدعي،
وإيـــــــــــــاك أن تغتـــــــــــــري بالتـــــــــــــاج والكرســـــــــــــي،
ولا تفتخـــــــــــــري أن يكـــــــــــــون العـــــــــــــالم تحـــــــــــــت ســـــــــــــلطتك،
أفيقـــــــــــــي يـــــــــــــا عينـــــــــــــي، مـــــــــــــن الغفلـــــــــــــة أفيقـــــــــــــي،
أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي.

إننـــــــــــــي أنـــــــــــــا عبـــــــــــــدك مـــــــــــــراد، اغفـــــــــــــر لـــــــــــــي ذنبـــــــــــــي
اغفـــــــــــــر لـــــــــــــي ذنبـــــــــــــي، وارفـــــــــــــع عنـــــــــــــي خطيئتـــــــــــــي،
واحشـــــــــــــرني تحـــــــــــــت لـــــــــــــواء الرســـــــــــــول،
أفيقـــــــــــــي يـــــــــــــا عينـــــــــــــي، مـــــــــــــن الغفلـــــــــــــة أفيقـــــــــــــي،
أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي.

uyan ey gözlerim gafletten uyan
uyan uykusu çok gözlerim uyan
azrail'in kasti canadır inan
uyan ey gözlerim gafletten uyan
uyan uykusu çok gözlerim uyan
seherde uyanırlar cümle kuşlar
dilli dillerince tespihe başlar

tevhit eyler dağlar taşlar ağaçlar
uyan ey gözlerim gafletten uyan
uyan uykusu çok gözlerim uyan
semavatin kapıların açarlar
müminlere rahmet suyun saçarlar
seherde kalkana hülle biçerler
uyan ey gözlerim gafletten uyan
uyan uykusu çok gözlerim uyan
bu dünya fanidir sakin aldanma
mağrur olup taç-u tahta dayanma
yedi iklim benim deye güvenme
uyan ey gözlerim gafletten uyan
uyan uykusu çok gözlerim uyan
benim, murat kulun, sucumu affet
sucum bağışlayıb günahım ef et
resul'un sancağı dibinde haşr et
uyan ey gözlerim gafletten uyan
uyan uykusu çok gözlerim

(Özlem Güner . Padişah III. Murad .İstanbul. Turan yay". ٢٠٢١)

إنَّ النـــاظر لأبيـــات قصـــيدة الســـلطان "مـــراد الثالـــث" "أفيقـــي يـــا عينـــي"، أول مـــا يلاحظـــه هـــو نبـــرة النـــدم والخـــوف لـــيس لـــذنبٍ اقترفـــه فـــي حـــق إنســـانٍ آخـــر، إنمـــا لـــذنبٍ فـــي حـــق نفســـه، وهـــذا بـــادئ ذي بـــدء

يدلُّ على أنَّ ضمير السلطان حاضر يراقب تصرفاته، ويحاسبه عليها أولًا بأول إنَّ أيَّ إنسان عادي يشعر بتأنيب ضميره لمجرد أن فاتته صلاة الفجر؛ ليشهد له الجميع بالتقوى والورع فما بالنا بحاكم سلطان عظيم يحكم أكثر دول الأرض في زمانه، وحوله من زخارف الدنيا وزينتها ما يسلب العقل، ويُنسي الإنسان آخرته ودينه، ولو نظرنا إلى حال السلطان "مراد الثالث" من خلال محاسبته لنفسه هذا الحساب العسير على تقصيرها في فرضٍ واحد في يومٍ واحد فقط لم يؤده على وقته سيمكننا أن نستخلص دلالاتٍ كثيرة، منها:

أنَّ هذا السلطان إنَّما تمت تربيته تربية دينية قوية.

أنَّ الجانب الديني لدى السلطان يصارع جوانب مهمة أخرى في حياته، مثل: العرش، والأبناء، وزخرف الدنيا، وهذا يحسب له.

أنَّ مَنْ حرص على أداء فريضة واحدة في وقتها وإذا لم يؤدها في وقتها يشعر بكل هذا الندم والحسرة – إنَّما هو يستحق هذه المكانة التي أولاها الله –عز وجل– له مثلما نراه نحن البشر من خلال حكمنا على ظواهر الأشياء، أما بواطنها فيعلمها الله كما يعلم ظاهرها.

أنَّ هذه القصيدة أظهرت لنا أنَّ الإنسان مهما عظم شأنه فإنَّه عبدٌ فقيرٌ محتاجٌ لربه، وهذا ما شاهدناه من حال السلطان "مراد الثالث".

أنَّ الخير لا يلزمه أنْ يظهر من خلال نصر عظيم لسلطان ذي شأن كبير بأن يفتح بلادًا بعيدة، أو أنْ يغنم غنائم عظيمة إنَّما في

صلاة بين يدي الخالق على وقتها قد يوفق ذلك الحاكم في ديمومة حكمه واستمراره مع انتصارات عظيمة؛ بسبب دعوة قبلها الله أثناء أداء هذه الصلاة.

لذا لا نتعجب من هذا الندم، وهذه الحسرة لدى السلطان فما يفكر فيه هو وما ضاع منه من عطايا كان يحصل عليها بسبب صلاته الفجر في وقتها لا نعلمه نحن، فربما كان له سابق تجارب كثيرة بينه وبين الله في صلاته للفجر لوقتها، وما كان يهبه الله من عطايا له في حياته عامة، فهذا سر بينه وبين الله .

والسلطان "مراد الثالث" من خلال دراستنا لقصيدته هذه شعرنا من بدايتها إلى نهايتها بمجرد مطالعتها أنَّه يميل إلى الزهد والافتقار إلى الله، وتقديم الآخرة على الدنيا، والتذلل والتضرع إلى الله، وكذلك ذلك العشق والحب والوصال مع الله وأرى أنَّه من المناسب أن نتطرق لموضوع الزهد حتى تكون لتلك القصيدة وقع أكبر داخل أنفسنا، ونتأثر بما تحويه بين ثناياها، وكأننا عاصرنا السلطان "مراد الثالث"، وكنا نعيش معه في خلوته، ونصلي الصلاة لوقتها، ونذكر معه الله، فماذا سيحدث لنا وهو معنا أيضًا عندما لا نؤدي صلاة فجر اليوم لوقتها، هل سنحرم تلك المشاعر من الوصال مع الله كما عَبَّرَ هو عنها، وأنها كانت مؤلمة تلك الأحاسيس أن ينقطع عنك حب الوصال والعشق مع الله فتجد نفسك متعبًا من هذا الشعور عندما لا تجد أمامك إلَّا الندم والحسرة ومعاتبة النفس وحسابها حسابًا عسيرًا تتألم من خلاله بل وتجلدها؛

لذلك سنحاول تعريف الزهد، ونتطرق إلى أهم أغراضه:

يعرف الزهد لغةً: بأنَّه القدر اليسير من الشيء، وزهد عن الشيء أو زهد في الشيء؛ أي أعرض عنه، وتركه خوفًا من العقاب والحساب تحرجًا منه، أو احتقارًا له، ذلك العابد هو الزاهد، وذلك الزاهد هو الراغب عن الدنيا والمنصرف إلى الأخرة، فهو لا يهمه تملك الدنيا بما فيها، ولا يحزن على فوات ملكها.

واصطلاحًا: هو الابتعاد عن المعصية، وكل ما يبعد العبد عن طريق ربه، ولا يسعى لنيل متاع من الدنيا إلَّا القليل، ويمكن الوصول إلى درجة الإعراض عن أمور الدنيا كلها مستعينًا بتطهير قلبه من شوائب الدنيا، منها: الطمع، وحب التملك، والمدح من الآخرين .

حتى أنَّ الزهد هو أعلى من الورع والتقوى، ويحوي بداخله المعنى الروحي والأخلاقي، وليس شرطًا أن يعرض صاحبه بالكلية عن الدنيا، بل يكون زاهدًا مؤديًا حق ما ملَّكه الله عليه، على أن تتحكم الروح والفكر معًا في كل مادياته التي يملكها.

وشعر الزهد هو من الألوان الأدبية التي تحوي معاني سامية للروح، ويتناول الدنيا من منظور فنائها مع ترك ملذاتها، ويوجه الناس بانتهاج السير نحو الآخرة كهدف سامٍ لهم في حياتهم، وأن يعرفوا قدر المناسك والعبادات، ويتمسكوا بها، وكانت هناك بعض العوامل التي أثرت في الشعر، فكانت أشعارهم مصطبغة بالزهد في منهجها، منها: عوامل اجتماعية كانشغال الناس بالدنيا، وتركهم لأمر الآخرة، كذلك ظهور حالات البزخ عند الحكام، وظهور مشاهد المجون في مجالسهم، وانتشار السرقات وأكل الحرام بين التجار،

كان لكل ذلك أن نأت طائفة بنفسها عن العامة والحكام، ووجدوا في أشعارهم صوت عظة وعبرة، يوجهونه للناس؛ لعلهم يرجعون إلى ربهم، وكان أيضًا من العوامل المؤثرة لظهور شعر الزهد العامل الذاتي، وهو أنَّ كثيرًا من الناس كانت تحب عبادة ربها من خلال العزلة، والبعد عن الناس وحياة بزخهم؛ حفاظًا على أنفسهم من الفتن، ولكي يهذبوا أنفسهم، إلَّا أنهم لم ينقطعوا بالكلية عن الناس ولا الأمة، فكما كان لعزلتهم جمالها كان أيضًا لتفاعلهم تجاه واجباتهم أداءً أجمل٥.

فالحكام مثل السلطان "مراد الثالث" لا يترك أمر أمته وشئونها، إنَّما يديرها، ويتقدم بها من نجاح لآخر، كذلك أمر جهاد أو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر لا يتركه، وكان الزهاد رغم عزلتهم في أوقات كثيرة لا يتخلفون عن الأمر بالعروف والنهي عن المنكر، وكان أيضًا من أغراض شعر الزهد ما يأتي:

- أنَّ شعراءه يلتزمون بالنهج القويم للدين تاركين ملذات الدنيا، ولا يتعرضون لها في موضوعاتهم إلَّا للترغيب في الزهد فيها، كذلك كان هدف هؤلاء الشعراء دعوة الناس لتعلم أمور دينهم، فكان أكثر دعوتهم للناس تصطبغ بالنصح والإرشاد، وكذلك كانوا يكثرون من ذكر الموت جاعلين أشعارهم تمتاز بسهولة مفرداتها وأسلوبها، ويمتاز نهج شاعر الزهد من أول القصيدة حتى آخرها بالتركيز على الزهد، ولا يبتعد عنه بين ثنايا القصيدة، وكانوا يستخدمون الصور الفنية الجميلة التي تناسب غرض شعر الزهد، كما نرى في تلك الصور التي صورها لنا السلطان "مراد" من خلال قوله:"تستفيق الطيور عند الفجر"، وشرحت أغراض وجماليات هذا

البيت بين ثنايا قصيدته، وغير هذا البيت توجد أبيات أخرى تحوي مشاهد أجمل وأوقع بين ثنايا القصيدة شرحتها كلها في المبحث الثاني.

- كذلك من أغراض شعر الزهد دعوة الناس إلى التوبة، والاستغفار، والاستعانة بالله، والرضا بما قدره لعباده، والتحذير من قدوم الموت فجأة بينما الإنسان تاركًا فرائضه وهو على معصية، وشرحتُ كل هذا بالتفصيل أيضًا في المبحث الثاني.

- كذلك من أغراض شعر الزهد دعوة الناس للتحلي بالصبر على أمور الدنيا، وتحمل مصائبها، والرضا بما هو مقدر كذلك التطرق للحديث عن الثواب والعقاب والجنة والنار.٦

وأردتُ بالتطرق لموضوع الزهد ومعرفة خصائصه وموضوعاته أنْ نثبت هذه الصفة للسلطان "مراد"، وذلك لما كان يذكر عن زهده وكثرة تضرعه لله -عز وجل- لذا كان علينا معرفة كل الجوانب المحيطة وقت كتابة قصيدة السلطان "مراد الثالث" "أفيقي يا عيني"، وكان لهذه المعلومات التي عرفناها عن شعر الزهاد أهمية كبيرة من حيث الموضوعات التي يتطرق إليها شعراء الزهد، وأهم خصائص هذا الشعر، والذي كان متطابقًا تمامًا لما ذكرناه من شرح لأبيات القصيدة في المبحث الثاني من خلال استخراج الصور الجمالية من بين ثنايا القصيدة كذلك ما تحويه من سهولة المفردات وتشبيهات بلاغية جميلة، وسيكون لرسائل الزهد والندم الجانب الأكبر لدراستنا، كذلك ذكر الآخرة والعمل لنيل رضا الله .

وأود تأكيد أنَّ هذا البحث موضوعه الرئيس؛ هو جانب الزهد لدى السلطان "مراد الثالث" المتمثل في صوفيته وحبه للآخرة وتفضيله لها على حساب الدنيا وما فيها من متعٍ فانية، والتي حاولتُ أن أكسوها بثوب رسائل زهد معبرة عما يجيش في صدره وجهها إلى الأمة، وعلينا أن نعي جيدًا بأننا أمام سلطان عظيم توسع في حدود الدولة العثمانية حتى بلغ بحدودها ما لم يبلغه من سبقوه من حكام؛ فصارت في عهده دولة كبيرة ذات شأن عظيم بين دول العالم.

لذا علينا أن نفهم جيدًا أنَّ هذه القصيدة إنَّما ألفها وكتبها مَنْ يحسب له ألف حساب من دول كبرى، وليس من مجرد ملايين من الشعب وحسب، فهل سنجد بين ثنايا قصيدته افتخاره مثلًا بأنه ملكٌ عظيمٌ أو غطرسةً بسبب قوته وملكه أو جبروت يسلطه على مَنْ يخالفه؟ كل ما سبق لم نجد منه شيئًا يرمز من قريب ولا بعيد لمثل هذه الصفات، بل وجدنا بين ثنايا القصيدة شخصية ذلك العبد الفقير المتذلل لربه المتضرع المتحسر بين يديه الواقف على بابه راجيًا منه أن يقبل توبته على فوات صلاة الفجر لوقتها فلو قورن حال السلطان "مراد الثالث" بأحوال ملوكٍ آخرين فأين مثل هذا الندم وهذه الحسرة لمجرد فوات صلاة الفجر لوقتها وبين جبروت وظلم حكام آخرين لا يندمون ولو للحظة عما يقترفونه من جرائم إبادة أو نهبٍ لثروات أو حتى خيانة لأوطانهم؟!

إنَّ الناظر لحال الدولة العثمانية ورغم سوأتها الكثيرة ليعلم علم اليقين ما كان لها لتستمر أكثر من ستة قرون متواصلة تحكم أكثر بلاد الدنيا إلَّا أن جوانب الخير فيها غلبت جوانب الشر، وأن أكثر

سلاطينها لولا تلك العادات السيئة من قتل إخوتهم واتخاذهم للمحظيات زوجات لهم من الروس والأرمن لولا هاتين السوأتين – لكنا أصدرنا حكمنا بأن سلاطين بني عثمان هم امتداد لحكم الخلفاء الراشدين.

وتذكر المصادر التركية عن السلاطين الشعراء بأنَّ تربيتهم الخاصة التي تلقوها منذ أن كانوا أمراء في سن صغيرة كان من أهمها تعلم القرآن واللغات وعلوم أخرى كثيرة؛ مِمَّا جعل لديهم حبًّا كبيرًا للتأمل والتدبر ما كان نتيجته ميل كثير منهم إلى الكتابة في موضوعات متنوعة، وكان للأشعار الصوفية نصيبًا كبيرًا من هذه الكتابات.٧

وندلل على ذلك من خلال نموذج من أشعار السلطان "سليم الثاني" والد السلطان "مراد الثالث"، وهو على النحو الآتي :

نحن بلابل ذات صوت محروق (منهك) لحديقة ورود متناثرة.

لو مرَّ نسيم الصباح من حديقة وردنا لاحترق بسبب حرارتنا.

Biz bülbül-i muhrik-dem-i gülzâr-ı frâkız

Âteş kesilür geçse sabâ gülşenimizden

)Yedikıta dergisi .İstanbul. ٢٠٠٣(

كل هذا التمهيد أردتُ به أن نهيئ أنفسنا أن مقام كتابة القصيدة إنما كان كاتبها سلطانًا عظيمًا، وحالته هي أنه فرط في أداء فرضٍ واحد في يوم واحد بعيدًا عن وقتها المحدد، ولم يرتكب سوى هذا الجرم وهذا الذنب؛ لذا كان لزامًا علينا أن نحدد الجرم والذنب؛ لأننا

وعند دراسة الجانب الصوفي المتمثل في الزهد والندم بين ثنايا القصيدة لنجد كل ذلك اللوم للنفس وعظم ما اقترفته من ذنب نظن أنَّ السلطان إنَّما ارتكب من الفواحش ما يدعونا بالحكم عليه أنَّه اكتسب إثمًا عظيمًا.

- رسائل السلطان "مراد الثالث" إلى الأمة من خلال قصيدته:

سنتناول الآن رسائل السلطان "مراد الثالث" من خلال قصيدته "أفيقي يا عيني" كل بيت على حدة نستخرج من بين ثناياها الجوانب الدالة على الزهد، ومحاسبة النفس قبل يوم الحساب، وتأثر "السلطان مراد"، وندمه وحسرته على ما اقترفه من فوات صلاة الفجر في وقتها، ولومه الدائم لعينه التي نامت، وغفلت، ولم تستيقظ لأداء ما فرضه الله عليه في وقته:

أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي، (uyan ey gözlerim gafletten uyan)

أول كلمة في القصيدة يستهلها السلطان "أفيقي" يوجه من خلالها خطابه إلى عينه طالبًا منها أن تستيقظ وتستفيق من نومها، وأول ما نلاحظه من هذا أنَّ بلاغة السلطان حاضرة، فتوجيه الخطاب إلى العين يعني أنَّها تسمع وتعقل، وفي هذا استعارة مكنية أسند إلى عينه لازمة من لوازم الإنسان؛ وهي السمع والفهم، كأنه صورها إنسانًا شاخصًا أمامه يخاطبه ويعاتبه على ما اقترفه من ذنب في حقه فلولا غفلتكِ يا مَنْ تقفين أمامي ما ارتكبت ذلك الجرم ولا هذا الذنب في حق نفسي ولا شعبي الذي هو أمانة عندي أمام ربي، كذلك سنحاول في النقاط الآتية استخلاص بعضٍ من الرسائل

الدالة على الزهد ومحاسبة النفس من بين ثنايا هذا البيت، وهي على النحو الآتي:

- يوجه السلطان لومه إلى عينه فيما يبدو لنا أنَّها مجرد عين يرى بها؛ فيميز بها الأشياء إلَّا أنَّه يقصد بها عين بصيرته، وكأنها الرقيبة عليه وعلى تصرفاته.

- أيتها العين، هل تريدين أن تردي معي إلى المهالك في الدنيا والآخرة؟! إنْ أردت فلك ذلك إلَّا أني لن أسمح لك بهذا.

- إن الخطأ كان مشتركاً بيني وبينك فلا أعفى نفسي من هذا الخطأ أما أنت فتتحملى مسئولياتك أمامى ولتعترفى بتقصيرك.

- ألا تعلمين وتدركين من تصاحبين في حياتك ولمن تنتسبين فأنت مصاحبة لعبد صوفى ضعيف فقير بين يدى خالقه.

- إنْ ظننتِ أنَّ الخطأ الذي وقع منا معًا هو هين، فكيف لكِ ذلك أم أنكِ كنتِ تخادعيني سنين كثيرة؟! فأنتِ مصاحبة لصوفي زاهد، ولا يمكن أن يتغير عن حالته هذه.

- أين بكاؤكِ وذرفكِ للدموع وخوفك من الجليل وأنتِ واقفة بين يديه .

- لولا أني أعلم إيمانك وتقواك لشككت أنك أحببت حب الخير عن ذكر ربك إلَّا أني لا أظن هذا فيكِ.

- هل تعلمين أكثر ما أصابني بالحزن بعد فوات صلاة الفجر لوقتها أنَّك حتى لا يبدو عليك ندم ولا حزن ولا حسرة لما فاتنا من خير.

– لا أجد وصفًا يليق بكِ وأنتِ على هذه الحالة المزرية إلّا أنكِ غافلة تركت إدراككِ ويقظتكِ التي وهبها الله لكِ، ونمت نومًا عميقًا لم أعهده عليك من قبل .

– كيف لكِ أن تفرطي بمثل هذه السنين المديدة من عبادة وقرب إلى الله وتنعمين بنوم عميق جعل منكِ أمامي غافلة بلهاء ؟!

– إنَّ كلامي هذا لك ليس بمجرد إنذار، إنَّما هو صراخ ونداء إليكِ أنَّكِ قد ارتكبتْ جرمًا عظيمًا وذنبًا كبيرًا في حقي حتى وإن شاركتكِ في هذا التقصير، فأنا أطلب منكِ عدم تكرار مثل هذا، وأنا سأستعين على نفسي وأهذبها وأربيها من جديد حتى لا تتكرر مثل هذه المصيبة.

– إنْ تقصيركِ هذا وما أصابكِ من غفلة لم يصبني أنا وأنتِ فقط، بل أصاب الأمة بأكملها، فكيف للناس عندما يعلمون أنَّ ملكهم لم يصل الفجر لوقته؟! هل ننتظر منهم أن يحافظوا على صلواتهم كيف لنا ذلك؟!

– ألم تشعري ولو للحظة أثناء غفلتكِ بتأنيب لضميركِ بأني كيف أقصر في حق رفيق دربي في عبادة ربي مراد الفقير، فكم كان لنا وقفات بين يدي البارئ سبحانه وتعالى، وكم نعمنا وكأننا كنا في جنة الآخرة ونحن نشاهد نور الإيمان وحلاوته يدوران بين جنباتنا هل كل هذا هان عليكِ.

– لقد خسرنا كثيرًا حتى وإن تصدقنا بكل ملكنا لن يمكننا اللحاق بهؤلاء الذين أدوا صلاة الفجر على وقتها.

– يا عيني، يا حبيبتي، يا رفيقة دربي في حروبي وشئون ملكي، كم كنت أجد منكِ عندما تشتد عليَّ همومي، وتزيد عليَّ أحزاني دعوات منكِ لنفزع معًا، ونقف بين يدي الوهاب الذي وهب لكِ ملكِ، وحتى نخفف عن كاهلنا تلك الهموم، ونزيح عن أنفسنا الأحزان هل نسيتِ أيضًا كل هذا.

– أيتها الواقفة الآن أمامي، وأنتِ ترمين ببصركِ صوب الأرض تشعرين بالندم هل ترين حالكِ وحالي وما وصلنا إليه؟!

– إنَّ حمرة الخجل التي تعتريكِ وكأنها لهب أصابكِ كلكِ لهو كفيل بأنْ يكفر عنكِ ما اقترفتيه في حقي وحقكِ.

– إنَّ النادم على ذنبه المُقِرَّ به لهو دليلٌ على أنَّه أراد أن يتوب توبةً نصوحًا، فلتكن هذه التوبة مقبولة بإذن الله، ولا نكرر ما اقترفناه مرةً أخرى.

– إنَّ هذا الصمت منكِ وهذا الخوف الذي يعتريكِ بعد ما عرفتِ بعظم الجرم أرجو أن يكونا شفيعين أمام الله؛ ليغفر لي ولكِ هذا التقصير.

– إنَّ حسابي مضاعف عند ارتكابي للذنوب، فأنا أمام الله مسئولٌ عن أمر أمةٍ بأكملها.

– ماذا عسانا أنْ نفعل لو جاءنا أحدٌ من الرعية وعيَّرنا بتقصيرنا هذا؟ هل رأيت مستنقع المعصية الذي غصنا فيه معًا، وما أصابنا من عار نعير به من عامة الشعب.

– أنا لا يمكنني حمايتكِ فلا يغرنك أنني ملك عظيم، فهذا الظاهر أمام الناس، أمَّا في قرارة نفسي ويقيني أمام الله فهو ذلك العبد المحتاج الفقير الذي لا أغنى عن نفسي، ولا عن غيري أمامه سبحانه وتعالى شيئًا.

– ولا تركني إلَّا إلى الله القوي العزيز، إنَّما أنا ضعيف مثلك لولا فضل ربي لانكشفت سوأتي، ولفضحت أمام الدنيا بأكملها.

– ولتعلمي أني لو وقفت بين يدي ربي وحاسبني، وجاء دوركِ لفررت منكِ؛ خوفًا من أن تطلبي مني حقًا كان لكِ عندي في الدنيا، ولم أقضهِ لكِ.

– كفاكِ بكاءً وصراخًا وهيَّا بنا لنتوضأ، ونقف بين يدي ربنا؛ لعله يغفر لنا.

وتذكر المصادر التركية أنَّ الأشعار الدينية يكتبها مَنْ يعرفون بالعشاق عند الصوفية، وكان يطلق على هؤلاء العشاق الدراويش المنتمين لفرق مختلفة من فرق الصوفية، وكانت أشعارهم مرتبطةً بذكر التوبة إلى الله، والندم على ما فات من تقصير في حقه وغيرها من الموضوعات٨.

ومن أجمل الأشعار الصوفية التركية هذه الأبيات ليونس أمره*، والتي يذكر فيها الموت بوصفه رمزًا للزهد، وأنه هو الهم الأكبر

* يونس أمره: يُعَدُّ أحد أكبر شعراء الصوفية الأتراك، بل وفى تاريخ اللغة والأدب التركي، من أهم أعماله كتاب "رسالة النصيحة"، والذي ذكر فيه أنه ولد عام ١٢٤٠ م، وتوفي عام ١٣٢١م، وهو بذلك عاش نهاية حقبة السلاجقة وبداية حكم العثمانيين، وأهم الموضوعات التي تطرق إليها في أشعاره: الحياة، والموت، والوجود، والعدم، والكائنات، والحب الإلهي، وكانت أشعاره تمتاز بأسلوبه الرائع الرصين.

لمن يحيون ببصيرة في هذه الدنيا، ويخافون من الله، فبالنسبة لهم يوم القيامة هو يوم عظيم يجب عليهم أن يبكوا على حالهم، ويستعدوا لذلك اليوم.

وفي هذا دعوة للزهد في الدنيا والاستعداد ليوم الرحيل، وأنَّ الدنيا ما هي إلَّا جسر يصل بنا إلى الآخرة فيذكر يونس:

فلنذكر يوم القيامة، ولنبك اليوم،

فذاك اليوم هو يوم الملامة، فلنبك لذلك اليوم،

حينذاك تنشق الأرض، ويحيا الأموات.

وتسأل كافة الخطايا، فلنبك لذلك اليوم.

وتنفطر السماء آنذاك، فكيف يتحمل الإنسان؟!

فهل هناك مَنْ لا يخشى ذلك؟ فلنبك لذلك اليوم،

ومخاوف ذاك اليوم تجعل من الأبرياء شيبًا!

فكيف تكون أحوال المجرمين؟ فلنبك ذلك اليوم،

وآنذاك ترتفع أصوات البكاء والذكور والإناث عراة،

والأفئدة محروقة، فلنبك ذلك اليوم،

فيا يونس، ادخل طريق الهداية؛ إذ لا نعلم ما سيجري للإخوة،

فالشفاء يقدم من الحق، فلنبك ذلك اليوم.

Anıp kıyâmet gününü

(Yunus Emre Güldeste. Türkiye kültürünün Bakanlığı. İstanbul. ١٩٩٨)

Ağlaşalım ol gün için

Ol gün melâmet günüdür

Ağlaşalım ol gün için

Ol günde yerler yarıla

Cümle ölenler dirile

Cümle günahlar sorula

Ağlaşalım ol gün için

Ol günde gök

İnsan nice katlanisar

Ol günde kim korkmayisar

Ağlaşalım ol gün için

âh ol günün korkuları

Koca kılar mâsumları

Nice olur mücrimleri

Ağlaşalım ol gün için

Ol gün katı efgân ola

Erkek dişi uryân ola

Cümle ciğer biryân ola

Ağlaşalım ol gün için

Ey Yûnus Emre gir yola

Hal bilmeziz kardaş ri'ola

Meğer dermân Hak ' dan ola

Ağlaşalım ol gün için

Yunus Emre Güldeste . Türkiye kültürünün (Bakanlığı. İstanbul. ١٩٩٨)

ونستكمل قصيدة السلطان "مراد الثالث" بالبيت الآتي:

أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي. (uyan uykusu çok gözlerim uyan)

إنَّ الندم ظاهر جلي لا محالة، هذا ما نستخلصه بين ثنايا القصيدة من قبل السلطان "مراد الثالث"، فبمجرد قراءة البيت الثاني من قصيدته، فإننا نجد السلطان يكرر الكلمة نفسها "أفيقي"، فهو يصر على ألا يدع مجالًا لعينه سوى التوبة والندم والخجل من الله عما بدر منها، وشاركها هو فيه من معصية وتقصير، وإنَّما أراد في هذا النداء وتكراره بأنه لا مفر ولا مخرج أمامنا أنا وأنت إلَّا أن نستفيق فحق عليكِ الاعتراف بأنَّ نومكِ هذه الأيام قد كثر وزاد عن حده، وفي هذا إشارات بأنَّ ما حدث لنا هذه الأيام ليس من فراغ، إنَّما ناتج عن حب وميل للدنيا جعلكِ تعتقدين وكأنكِ يحق لكِ أن تتنعمي بهذا الغرور الزائل، وهو متاع الدنيا؛ لذا أنا وأنتِ سنبديان الندم، ونظهر التوبة، ونتخلى عن كثرة النوم، فربما ظن ظان أنَّ هذا كله من علامات التقاعس والانغماس في حب الدنيا، وهذا هو

الهلاك بعينه وخسران الدنيا والآخرة، وأنا لن أسمح لنفسي ولا لكِ بهذا أبدًا، وكأنَّ السلطان أراد في هذا البيت من القصيدة أن يبعث لعينه ولنفسه بعضًا من الرسائل على النحو الآتي بالإضافة إلى ما سبق ذكره أيضًا:

- أيتها العين لقد سُقتِ إليكِ دليلًا قاطعًا عن السبب الرئيس لما اقترفتيه من مصيبة حلت على رأسنا من فوات صلاة الفجر على وقتها؛ ألا وهو كثرة نومكِ.

- يا عيني، لتعلمِ أن من كثر نومه دلَّ على حبه للدنيا، وهجره للآخرة وما يقرب إليها من أعمال صالحات، فإنَّ المحبين الواصلين مع الله قليلًا من الليل ما يهجعون، وإلى صلاتهم دائمًا يفزعون وبين يدي ربهم يقفون أذلاء باكين.

- هل علمتِ يا عيني، أين نقف أنا وأنت وما وصلنا إليه من درجةٍ بين المحبين العاشقين لربهم؟ كم أنَّ هذه الدرجة مخزية إذا كنا لا نصلي الفجر لوقته، فكيف لنا أن ندعي أننا من هؤلاء الراجين المتذللين لأن يغفر لنا ذنوبنا، وأنَّى لنا التوفيق والنجاح في أمور ديننا ودنيانا؟!

- واجبٌ عليَّ نصحكِ وإرشادكِ لما ينجيني وإياكِ من مهالك التخلف عن ركب الصالحين، وإذا لم تسيري معي في طريق الصالحين، فلا تلومين إلا نفسكِ، فلن أنجر معكِ مرة أخرى إلى خزلانٍ ولا خسران.

كيف لي أن أوفق في حكمي وأمة بأكملها تنتظر مني ما يرضي ربي عني؟! فإني أطلب من الله أن يوفقني إلى ما فيه خير البلاد والعباد، ولن يكون ذلك إلا بحسن الوصال به وأداء حق عبادته

كما يحب ويرضى أرأيتِ يا عيني كم أن الأمر قد وصل إلى ما لا يحمد عقباه؟! فأنَّى لنا التوفيق فيما يخص الناس في شئون حياتهم وقد بعدنا عن التوفيق والسداد في قراراتنا؛ بسبب نومكِ وغفلتكِ؟!

- ألا تعلمين يا عيني، أنَّ صلاة الفجر فيها نور ينير الطريق للسالكين حتى نهاية يومهم، فالآن لا أرى أمامي إلَّا ظلام وفقدانًا للأمل في الخير، فلا يمكنني التمييز بين الغث والثمين.

- ألا تعلمين أنَّ صلاة الفجر إنَّما تمد نور البصيرة لدى العبد فيرى ما لا يراه غيره من بقية العبيد الذين تخلفوا عن صلاة الفجر لوقتها.

ألا تعلمين أنَّ حسن الوصال يبدأ مع الله من صلاة فجر لوقتها، وإذا تخلف العبد عنها فإنما قطع حبل الوصال مع ربه بيده، وفي هذا ضياع للخير.

إذا نظرنا إلى البيتين السابقين نجد فيهما الكثير من جماليات اللغة من حيث التشبيه والرموز الجميلة، كذلك نجد نفسية نقية معبرة وبصدق عن حالها الذي وصلت إليه، "فكلما صغر الذنب في نظر العبد كَبُرَ عند الله وكلما كبر عند العبد صغر عند الله" أو كما قال وهذا جانب من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعلى الرغم من أنَّ القصيدة كلها كان السبب الرئيس في تأليفها من السلطان "مراد الثالث" هو تلك الحالة عندما استيقظ من نومه، وقد فاجعته تلك المصيبة وهذه الطامة الكبرى، اللتان حلتا فوق رأسه، وقلبت حياته رأسًا على عقب حتى أدرك أنَّه هالك لا محالة، وهو

تركِه وغفلته بسبب نومِ عينيه عن صلاة فجر ذلك اليوم المشئوم من وجهة نظره، كان لنا أن نضع تلك الحالة تحت حكم؛ ألا وهو إذا ما كبر الذنب عند العبد صغر عند الله، وهذا رمز مهم يؤكد حسن إيمان السلطان، ونزعته الصوفية الحقيقية غير المزيفة، والتي لا يشوبها مجرد ادعاء بزور ليظهر أمام الناس أنه السلطان المؤمن التقي حتى يكسب ودهم، ثم يأتي دور بيتٍ ثالث في القصيدة يؤكد ما ذهبنا إليه من شرحٍ ومحاولة فهم نفسية السلطان وحاله وهو نادم حزين لما فاته من خير خائفًا مترقبًا لما سيئول إليه حاله بين يدي ربه حذرًا من عذابه، فذنبٌ مثل هذا لا يصح من مريدٍ محبٍ زاهد. هذا البيت الذي سيتمخض عنه فكر السلطان، وتكتبه يده يحوي كل الأدلة والبراهين على صدق سيرورته، وأنه سائرٌ في طريق طلب العفو والغفران من الله مهما كلفه السير في هذا الطريق، فقد صور السلطان نفسه وأنه حبيسٌ داخل قصره وملك الموت هو الحارس عليه، وأنه لا يمكنه الهرب صوب أي مكان في ملكه الممتد عبر القارات، فهنا لا فرق بين ملك وخادم الأمر أعظم من أن يتخيله بشر، فملك الموت ذلك الرسول العظيم من رب العرش والملكوت، الموكل بقبض روح العباد، ينظر إلينا دائمًا في انتظار أمر قبض أرواح كثيرة كل يوم وما يدريكِ يا عيني، ماذا لو كان اليوم هو موعد قبض روحي؟ هل يغني عني وعنكِ أحدٌ من العالمين؟ أيليق بنا أن نقابل ربنا في ذلك اليوم وقد اقترفنا ذلك الجرم العظيم، وهي صلاة أشار سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى أنَّ أثقل صلاتين على المنافقين هما صلاة العشاء والفجر؟ أرأيتِ يا عيني، أين وضعنا أنفسنا، وإلى أي حالٍ صار حالنا اقتربنا من الدرك الأسفل من النار إذا لم

نـــنهض الآن، ونســـتفق، ونلملـــم معاصـــينا ومـــا جررنـــاه علـــى أنفســـنا فـــي ذلـــك اليـــوم، فكـــان لاستحضـــار ذكـــر ملـــك المـــوت (عزرائيـــل) كمـــا يشار إليه في خطاب البشر الدارج بينهم أن الأمر جلل عظيم.

وإنـــي لأعـــذر الســـلطان "مـــراد الثالـــث" فـــي كـــل مـــا ســـبق، فالإحســـاس بالنـــدم والحـــزن علـــى التفـــريط فـــي حـــق الـــنفس أمـــام الله إنَّمـــا يـــدل علـــى أنَّ هـــذه نفـــس لوامـــة تريـــد أن ترقـــي بصـــاحبها لدرجـــه الـــنفس المطمئنة.

ومِمَّـــا يـــدلُّ علـــى مـــا ذهبنـــا إليـــه مَـــنْ رأى أنَّ أكثـــر قصـــائد الســـلطان "مـــراد الثالـــث" وارد بـــين ثناياهـــا مـــا يؤكـــد حبـــه وتمســـكه بالتصـــوف نـــاهلًا مـــن بحـــوره، ولا ســـيما أهـــم روافـــده ألا وهـــو الزهـــد معبـــرًا عمـــا يجـــيش بـــه صـــدره مـــن خـــلال أشـــعاره، وهـــذا نموذجًـــا مـــن ديوانـــه تحـــت عنوان "غزل"(Gazel)

أنا عاجز ساعدني يا رب،

اجعلني في مأمن من النفس والشيطان،

أحد جانبيَّ النار والآخر الماء،

بين الماء والماء تجعلني أشعر بالراحة.

Çâresiz kaldım Hudâyâ çâre kıl yâ Rab bana

Nefs ü şeytândan halâs eyle beni ey pâdişâ

Bir yanım âteş olupdur bir yanımda oldu su

Od ile su arasında sen beni eyle rehâ

(İsen, Mustafa, A. F. Bilkan, T. I. Durmuş (٢٠١٢). Sultanların Şiirleri, Şiirlerin Sultanları. İstanbul: Kapı Yay. ١٤٦).

ونص البيت الذي تناول فيه السلطان ذكر الموت داخل القصيدة هو:

– صدقيني إنَّ ملك الموت قد يسلب الروح. (azrail'in kasti canadır inan)

نشعر بأننا نحن أيضًا تأثرنا بما تأثر به السلطان "مراد"، فالإنسان منا مهما قصر في عبادات وفرائض قد يظهر ندمه أمام خالقه أو لا يظهره، كلٌّ على قدر دينه وقربه وخشيته من ربه.

إنَّ ما شاهدناه من تلك الحال التي وصل إليها السلطان "مراد" ليجعلنا نعيش معه داخل تلك الحالة سواء أكان أكثرنا شديد القرب بربه أو عكس ذلك، فإنما هنا نستخلص العبرة والعظة وكأننا نشفق على حال السلطان، ونقول له هون عليك إلَّا أنه لا يسمعنا إنَّما هو واضع حاله التي يعبر عنها بأنها مقصرة مذنبة عاصية في ركن لا هروب منه، ويمسك بيده بسياط الحزن والندم والحسرة والشعور بالخزلان والخسران على ما قصر وما فاته من خير لا يمكن تعويضه بكل كنوز الدنيا، ويجلدها دونما توقف، ولا هوادة، ولا رحمة، ولا التماس أعذار، فهو مدرك لحجم الجرم ومآلاته في الدنيا والآخرة، وهذا لا يكون إلَّا لبصيرة محبة لله قريبة منه ترى ما لا يمكن للكثير من حولها أن تراه، فعين بصيرة العاشق الواصل مع ربه ترى ما لا تراه عين الغافل المنغمس في شهوات حب الدنيا وزخرفها، كذلك يمكننا أن نحاول فهم بعض الرموز المعبرة عن

حال السلطان مراد الثالث بين ثنايا هذا البيت من خلال النقاط الآتية:

١)- أيتها العين، إنَّ الأمر حق جلل، فملك الموت لو حضر الآن اعلمي أننا في خطر داهم، فالعبد يبعث على مات عليه كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا لن أقبل منكِ ولا من نفسي أن أبعث يوم القيامة، ويشار عليَّ أمام الخلائق، قائلين سلطان المسلمين قد مات من يومه، ولم يؤدِ صلاة الفجر على وقتها.

٢)- يا عيني، هل خفت الآن بذكر ملك الموت فما بالكِ لو أننا قبضنا الآن مَنْ سيشتت ذلك الخوف ويبدلنا بدلًا منه السكينة والرحمة؟ هل علمتي كم أنَّ الأمر عظيم؟

٣)- لا تخدعي نفسكِ، وتهوني من الأمر، فكذب النفس على صاحبها؛ كي ترضيه، إنَّما أورد مَنْ كانوا قبلنا المهالك.

٤)- إنَّ صدق حديثي إليكِ إنَّما هو نابع من حب لتلك اللحظات الطيبة التي نقضيها أنا وأنت كل يوم بين يدي ربنا في صلاة يغفل عنها الكثير، فلا تحرميني، ولا نفسكِ من تلك اللحظات التي لولاها ما بارك لنا الله في شيء يخصنا في حياتنا.

٥)- إذا لم نتعظ أنا ولا أنتِ، ولم نخف من ملك الموت - فعن أي شيء آخر تحدثيني عن دنيا فانية أم منصب زائل؟! فلن ينفعنا إلَّا ما عملنا وقدمنا من خير.

٦)- إنَّ من علامات الصالحين بمجرد ذكر ملك الموت يصيبهم الخوف من لقاء الله، فهم دائمًا يشعرون بالتقصير وعدم أداء الحقوق كما أمرهم ربهم، فأين ذلك الخوف من لقاء الجليل؟!

٧)- إنَّ هذه الروح التي وهبنا الله إياها؛ كي نحيا بها على وجه الأرض - إنما هي متلبسة بذلك الجسد الفاني أيامًا معدودات، ثم تعود لبارئها والموكل بقبضها من الملائكة، قد يسلبها في أي وقت كما قدر الله في مكانٍ وزمانٍ محددين، فلا تنسي هذا أبدًا، فإنْ نسينا فإنَّ هذا بمنزلة قطع الصلة بالصالحين العاشقين، وصرنا في فريق الغافلين التائهين الضالين لطريق الحق.

٨) يا عيني، كيف لنا نرى أمامنا كل يوم أرواحًا وقد قبضت وفاضت إلى بارئها، ولا نخاف، ولا نخشي على نفسينا، فرسولنا - صلى الله عليه وسلم- يقول:" مَنْ لم يكن الموت واعظًا له فلا واعظ له"، أو كما قال -صلى الله عليه وسلم- فإذا لم نأخذ من الموت عظتنا فمن أي أمر غيره نأخذها، وهو أعظم أمر يحدث للإنسان في حياته بعد مولده.

ويذكر بأنَّ أولى علامات التصوف بين ثنايا أشعار الصوفية هي أشعار الزهد، وهذا ظاهر جلي في أشعار السلطان "مراد الثالث"؛ إذ إننا نجد دائمًا بين ثنايا أشعاره ما يدلُّ على الزهد فيما تملك اليد، ومفهوم التقوى الغالب على أكثر تعبيراته.٩

وإني لأجد أننا سرنا في طريق الصوفية والتصوف لما نجده بين ثنايا الأبيات من إشاراتٍ ورموزٍ أرسلها السلطان "مراد الثالث" تدلل على زهده وخوفه من ربه وحبه لطريق ربه، وتقديم عبادته عما سواها من الدنيا مهما بلغت درجتها في الدنيا فأي ملك ولا حاكم أو سلطان يعبر بمثل هذا البيت من الشعر ذاكرًا بأن عزرائيل يسلب الروح إنَّ هذا لهو دليل على أنَّه يكره الدنيا، ويحب الآخرة، وإلا فإن مجرد ذكر الموت عند العصاة هو بمنزلة شر قد حضر

ذكره في المجلس حتى أنهم يقولون لنغير هذا الحديث خوفًا وهربًا من الموت، فهم يعلمون مسبقًا أنَّ تقصيرهم وذنوبهم لها حساب عسير لم يحن وقته من سيقربهم من هذا الميقات، ويأخذهم إليه هو ملك الموت، أما الأمر هنا في حالة السلطان "مراد" فمختلفة بالكلية، فالرجل لم يتحدث عن أنَّه ارتكب ذنوبًا ومعاصي وكبائر وعدَّدها، إنَّما هو يمر بكل هذه الأزمة، وهذه الحالة الشديدة القسوة؛ بسبب صلاة فجر هي عزيزة على نفسه حبيبة إلى قلبه، فيها يجدد روحه وعقله، ويغذي أفكاره، ويجدد خلايا جسده؛ فيزداد نشاطه، ويعيش لحظات من صدق وإخلاص بين يدي ربه؛ فيزداد ذلك النور في روحه، وكأنه يصعد إلى السماء ليرتاح قليلًا من عناءٍ يعيشه على وجه الأرض؛ بسبب مسؤولياته الجسام من شئون حكمه وشعبه، كل هذا لا يساوي شيئًا من نظرةٍ واحدةٍ من ربه، وهو يعاتبه لما قصرت يا مراد، وأنت تسعى دائمًا راجيًا رضائي عليك، وأنت تعرف كيف تخاطبني وأخاطبك فوقوفك بين يديَّ وقراءتك لآيات الذكر الحكيم إنما أنا أخاطبك ثم ذكرك وتسبيحك في ركوعك وسجودك ودعائك في صلاتك إنَّما أنت تخاطبني فكيف تترك الحديث معي، وتذهب لمخلوق فقير مثلك؟! هل يليق بك هذا يا مراد، وأنا أعطيتك ما لم أعطِ لأحد في عصرك من ملك للدنيا وبنين وممالك؟! وكأنَّ كل هذا كان يجول في خاطر السلطان "مراد" في حديثه بينه وبين نفسه، حاولنا أن نخمنه، ونعبر عنه، وذلك طبقًا لما قرأناه من بين ثنايا حاله الذي وصل إليه ألا وهو وقوع نفس عبد ما بين لسانه وقلبه يربيها ويهذبها

يجلدها ولا يرحمها، وكأنه يقول لها إنَّ هذا هو كمال الخير لك وإلا فلا تلومين إلا نفسكِ.

إنَّ ذكر الموت والاستعداد لدخول القبر ورد بكثرة بين ثنايا أشعار السلطان "مراد الثالث"، ويشاهد أيضًا بين ثنايا أشعار من سبقوه من أجداده السلاطين، ونلل على ذلك بالأبيات الآتية لجده السلطان "سليم الأول"، والتي يذكر فيها أنَّه لن يهنأ، ولن يرتاح في قبره لو صار حال الأمة في حالة من الفرقة والاختلاف، فيقول:

إن القلق على أمتي من الاختلاف والفرقة؛

يجعلنى غير مرتاح في قبري.

إن الاتحاد هو الوسيلة الوحيدة لصد هجوم العدو،

وإذا لم نتحد فإن هذا يؤذيني في قلبي الأبدي.

Milletimde ihtilâf u tefrika endîşesi

Kûşe-i kabrimde hattâ bî-karâr eyler beni

İttihâd oldu hücûm-ı hasmı def'e çâremiz

İttihâd olmazsa dâim dâğdâr eyler beni

(Yedikıta dergisi .İstanbul. ٢٠٠٣)

ثم يدلل لنا السلطان "مراد الثالث" من خلال قصيدته"أفيقى يا عيني" على صدق ما ذهبنا إليه سلفًا من تكرار بيتين يسيران في نفس النهج والطريق إلى التوبة وكراهية الدنيا وحب الآخرة، وهما:

أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي

(gafletten uyan uyan ey gözlerim)

أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي. (uyan uykusu çok gözlerim uyan)

حتى أننا نجد أنَّ البيتين الأولين مطابقان لهذين البيتين، فالشعور الذي يسيطر على قلب وعقل السلطان "مراد الثالث" لا تستطيع نفسه تحمله حتى كاد صدره يضيق به، وكاد يتسلل من بين ضلوعه، ويودي بحياته، فالحمل ثقيل، والهم كبير، كيف له سيبرر ما حدث ولا يجد سلوى أو عزاءً تريح عقله وقلبه، اللذين تأذيا حتى أنه سيظل في آخر حياته نادمًا آسفًا، إنَّ هذا اليوم في حياتك يا مراد، يوم مشهود، ولن تنساه أبدًا حتى أني في هذا اليوم لن أجد أي لذة ولا راحة في ملذات الدنيا مهما كان تفضيلي وحبي لها.

وكأن نفس السلطان "مراد الثالث" ترسل لنا رسائل كثيرة عما عاناه ولاقاه من أذى في ذلك اليوم حتى أنَّ حالته صارت يرثى لها.

فتعلقه بالله وإيمانه به راسخ كالجبال، وتوكله عليه وتعظيمه واضح جلي؛ ومما يؤكد هذا ما ورد في هذين البيتين من قصيدة له بعنوان مناجاة (MÜNÂCÂT):

الحمد لله أنه أحد،

هو عالم وعلام وحكيم وصمد.

Hamd ol Allah'a ki oldur ehâd

Âlim ü allâm ü hâkim ü samed

İsen, Mustafa, Sultanların Şiirleri, Şiirlerin ( )Sultanları. ٢٠١٢. İstanbul

وإنَّ أول ما يُعَبِّرُ عن مكنون نفس الشاعر الصوفي هو تعلقه بالدين، والمحافظة على كل فرائضه، ولا يصير مريدًا ولا عاشقًا إلَّا إذا كان حاله موافقًا لداخله.١٠

ونسير بين جنبات بستان تلك القصيدة الجميلة "أفيقي يا عيني" للسلطان "مراد الثالث"، فبعد جلد الذات والقسوة عليها أراد لنا أن نستريح قليلًا داخل ذلك البستان، ونستنشق معه عبير الفجر، بينما الطيور تداعب سمعه، وترسل أجمل أصواتها إلى فؤاده، وكأنه يتذكر حاله كل يوم مع صلاة فجره لوقتها، ويقول لنا حتى إن كنت سأعطيك مدة قصيرة تريحون فيها أنفسكم من ذلك العناء الذي سببته لكم كلماتي القاسية إلَّا أني سأجعلكم تشاهدون فيلمًا وثائقيًا قصيرًا حتى تلتمسوا لي العذر من هذه الصورة التي سلف مني ذكرها لكم عن ألمي وحالة حزني، فلتشاهدوا معي ذكرياتي عن صلاة الفجر لوقتها ظننتم أنَّ الجنة هي في الآخرة فقط، وأن أجر الصلاة والمحافظة عليها حتى إذا ذهبنا إلى الآخرة أدخلنا الله جنة الآخرة وحسب، فإن هذا حال قاصري النظر البعيدين عن حسن الوصال مع الله، فأنا تعلمت من مشايخي ومنذ صغري، والذين أحضرهم لي أبي ليعلموني أمور ديني، وكان من أهم أبواب تلك الدروس باب الزهد والصفاء مع الله قالوا لي يا مراد، إنْ أردت أن تعجل بالجنة على وجه الأرض، وتعيش فيها لحظات لا يعيشها من المؤمنين إلا قليلًا عليك بأن تكون عبدًا ربانيًا، فإذا ما وصلت إلى هذه الدرجة إنما أنت استعجلت نعيم

الآخرة، فذقت لذته قبل أن يرسلك ملك الموت إلى الآخرة، وفي الحالتين لن تصل إلى هذه الدرجات إلَّا برحمة ربك، فكن حريصًا على أن تكون جديرًا باستحقاق رحمة ربك بأن تأتي أوامره، وتنتهي عن نواهيه؛ لذا أيها المحبين للسلطان "مراد"، المشاهدين معه ذلك الفيلم الوثائقي القصير عن لحظة واحدة فقط عاشها بين يدي ربه عند صلاة فجر أحد الأيام في وقتها، وكأن السلطان "مراد" يريد أن يقول هنا فبعد أن أديتها وجدت نفسي في بستان، وقد ملأت الطيور باحاته، وغردت، وسبحت في عشها أعلى أغصان أشجار البستان تالية لأذكار الصباح بأصوات هي من الجنة؛ فجعلتني أغيب عن الدنيا مغمضًا عينيي مشاهدًا لما لا يمكنني أن أراه في أجمل بساتين الدنيا، إن حالة الشوق هذه والعشق لا تضاهيهما حالة أخرى على وجه الأرض مهما بلغ عزها وشرفها، وأنا أعلم منكم بذلك فقد جعل الله بين يديَّ كل ملذات الدنيا قريبها وبعيدها إلَّا أنها لا تساوي مثقال ذرة من النعيم الذي أعيشه في مثل هذه اللحظات الربانية بيني وبين ربي، كل هذا هو لسان حال السلطان "مراد الثالث"، وعلينا أن نعلم أكثر وأكثر بأن الرجل كان محقًا لأن يندم مثل هذا الندم على ما فاته من خيرات لا حصر لها.

ويذكر عن أشعار السلطان "مراد الثالث" أنَّ جُل روحها مفعم بروح الصوفية لا سيما التضرع والتوسل إلى الله، وكذلك الزهد، وكان أسلوبه يسير وفقًا لمنهج من سبقوه من أجداده السلاطين الشعراء، مثل: "سليمان القانوني" و"سليم الأول".١١

وسنحاول أيضًا أنْ نستهل من بين ثنايا هذا البيت بعضًا من رسائل السلطان "مراد الثالث" الذي أراد أن يعبر عنها من خسارته الكبيرة وتجارته التي ركدت صبيحة ذلك اليوم المؤثر في حياته.

تستفيق كل الطيور عند الفجر. (seherde uyanırlar cümle kuşlar)

ومن هذه الرسائل:

١)- يا عيني، إنَّ الطيور التي عهدت أن ترانا كل فجر نقف بين يدي الله، فتسعد، وتنتظر حتى ننتهي من صلاتنا، فتعانقنا بأصواتها، معبرة عن حب واعتزاز بصداقتنا، كل منا يجتهد في ذكر ربه نحن وهم فريق واحد في عبادتنا له والتقرب منه، هل رأيتِ يا عيني، كيف كسرت أنا وأنتِ بقلوب تلك الطيور الرقيقة؟!

٢) - إنَّ وقت الفجر هو وقت قيام الصالحين من نومهم، فمن تخلف عنهم انضم لعصبة الغافلين العصاة، ونحن صرنا منهم، فكيف سنقابل في فجر غدٍ أصدقاءنا وأحبتنا في بستان العابدين من طيور قد تحمل في حواصلها رسائل خير لنا حرمنا منها اليوم، ولن أسمح لي ولا لكِ بأن نحرَم منها تارة أخرى؟!

٣)- إنَّ الفضل للمخلوق ليس بضخامة جسده "مقارنة مع الطيور" ولا باتساع رقعة حكمه مثلي إنَّما الفضل يكون بلسانٍ ذاكرٍ لله كما يحب الله وليس كما يحب العبد، فالله يحب منا أن نذكره ذكرًا خالصًا لوجهه ليس فيه رياء كذلك اختار لنا أوقات تكون فيها الصلاة واجبة لوقتها علينا أن نؤديها في زمانها الذي حدده لنا هو، لا نتخلف عنها، ونؤديها طبقًا لهوانا؛ فلنأخذ من هذه الطيور العظة والعبرة.

٤)- إذا كانت الطيور بتلك الإمكانات المحدودة في جسدها وسبل عيشها لا تتخلف عن صلاة الفجر لوقتها، ونحن نملك من عوامل القوة والرفاهية، وهي تتفوق علينا أليس في هذا شعور يصيبنا بالخجل ونحن نقف أمامها منهزمين منكسرين؟!

٥) - سبحت لله في العش الطيور ونحن بين تنعم بالحرير والذهب والفضة والخدم والحشم، فتفوق ذلك العش على كل هذا البزخ كم أنت مضيع لصاحبك أيها الترف.

- وبلغتها تبدأ التسبيح. (dilli dillerince tespihe başlar)

جعل السلطان "مراد الثالث" للطيور لغة، وهي من باب الاستعارة، فالكلام بلغة فصيحة هي من لوازم الإنسان، أسندها للطيور وكأنه يسمعها، ويفهم كلماتها، وذكرها وكأننا نرى جماعة عابدة واحدة السلطان ومن حوله الطيور، هو يسبح في مصلاه، والطيور من حوله تسبح الله بلغتها الخاصة بها، التي علمها الله لها، وكأنَّ السلطان أراد هنا رسم صورة هي من أجمل اللوحات، فبينما هو جالس بعد صلاته للفجر يسبح الله بلسان فصيح ولغة واضحة مفهومة إذا به يسمع من أصوات تسبيح مصاحبة لصوته تبث من أعلى الأشجار، ومن فوق قصره تطلقها الطيور بلغتها، وكأنَّ السلطان يشعر بما تشعر به تلك الطيور من احتياجها لفضل الله ومنته عليهم جميعًا.

وبين ثنايا هذا البيت رموز جميلة، نذكر منها:

أ)- إذا كانت هذه هي همة الطيور ونشاطها في ذكر الله، فكم أنَّك مقصر يا مراد، في تسبيحك لربك.

ب)- إنَّ عطايا الله للعبد بسبب صلاته للفجر في وقته غير محدودة حتى أنَّ ذلك التسبيح من الطيور لهو مثال حاضر بين أيدينا، فمنها نتعلم حسن التوكل على الله، والسعي على الرزق.

ج)- إنَّ العبد يجب أن يكون له معينون كثر يعينونه على ذكر الله، ومن هؤلاء تلك الطيور الجميلة المسبحة.

د)- إنَّ الله غني عن ذكرنا ولن يزيد ذلك في ملك الله شيئًا إلَّا أنَّه يحب أن يسمع صوت عبده وهو ذاكرٌ له، وكأن تسبيح الطيور رسالةٌ لنا بأن كل مخلوقات الكون تسبح لله، فلنكن نحن أيضًا مع هذه الجموع الهادرة المسبحة بذكر الله.

هـ)- ليس بعيبٍ أن يلوم الإنسان نفسه ولو اتخذ العبرة والعظة من أضعف المخلوقات مثل الطيور، فبينما هي تؤدي حق العبادة نقصر نحن في ذلك.

وكان اتصال السلاطين العثمانيين وعلاقتهم بشعراء الصوفية معلومًا لدى الجميع، بل إن السلاطين كانوا يعتنون بشئون التكايا والطرق الصوفية، متخذين من خلالها مددًا لهم؛ لتزويدهم بروحانيات إيمانية تقربهم إلى الله، وتخفف عنهم أعباء شئون الحكم، وكانت تلك التكايا ترسم للسلطان بين أفراد شعبه صورة الحاكم الورع التقي المحب لدينه ووطنه، المخلص الساعي لتقدم الأمة ورقيها، ورفع راية التوحيد، ونشر كلمته في شتى ربوع الأرض، فالسلطان هو الحامي للدين وللمقدسات، المحافظ على حدوده وكل من يحيا على ترابه .١٢

وبعد ذكر الطيور يأتي دور الجبال والأحجار والأشجار وذكرها الله بين ثنايا القصيدة، فنجد ذلك الذكر الجميل لهؤلاء المسبحين كالآتي:

- والجبال توحد وكذا الأحجار والأشجار.(tevhit eyler dağlar taşlar ağaçlar)

إنَّ هذا امتداد لبقيه المخلوقات التي تذكر الله عند الفجر إلى جوار الطيور أيضًا وكأن السلطان "مراد الثالث" يزيد من خجله وخجل كل مَنْ تفوته صلاة الفجر قبل وقتها إذا كانت الطيور والجبال والأحجار والأشجار تؤدها لوقتها، وكأنَّ هنا كل واحد من هؤلاء هو يرمز إلى بني جنسه، فالأحجار والجبال تمثل هنا الجمادات، والأشجار تمثل النباتات والطيور تمثل الحيوانات، فهؤلاء وكل بني جنسهم يسبحون الله فأين نحن بني البشر من ذلك الذكر عند وقت الفجر؟! ويمكننا أن نستخلص من بين ثنايا هذا البيت الآتي:

أنَّ كل شيء يسبح بحمد الله إلَّا أننا لا نعلم كيفية تسبيحهم.

حتى أنَّ السلطان "مراد" هنا عبر بلفظ التوحيد دلالة على أنَّ إله كل الكائنات هو واحد أحد فرد صمد معبود واحد، وهو الله الملك القدوس الفرد الواحد.

بعد أن تعرف أيها الإنسان أن الحيوان والجماد يوحدون الله كيف لك أن تشرك به شيئًا؟!

ثم يكمل السلطان "مراد الثالث" قصيدته مكررًا ما سبق أن ذكره في مطلع القصيدة كالآتي:

– أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي، (uyan ey gözlerim gafletten uyan)

* أفيقى يا عيني، التي كثر نومها أفيقي. (uyan uykusu çok gözlerim uyan)

وكأنَّ السلطان هنا يريد أن يؤكد ضرورة وحتمية أنَّه ليس هناك أي سبيل ولا خيار آخر للنجاة إلَّا بالعودة والتوبة إلى الله عن ذلك الذنب العظيم عندما نامت عينه عن صلاة الفجر، وتكرار الشيء داخل النفس يدلُّ على مدى اللوم الشديد لها حتى لا تعود لمثل هذا مرة أخرى.

فخوف السلطان من ربه ظاهر جلي، فهو يراقبه ويهابه دائمًا، وهو على يقين بأن الله هو الرزاق المتفرد بالوحدانية والمعين على كل شئون الحياة، فلو تخلى ربه عنه لهلك، وما بقى ملكه لحظة واحدة، ويظهر ذلك التعلق بالله، وأنه جد عظيم في نفسه لو أننا نظرنا إلى هذين البيتين من قصيدة مناجاة أيضًا للسلطان "مراد الثالث":

هو رازق فرد مبين.

هو معين لكل الباقين.

Ol durur râzık u ferd ü mübîn

Cümle kalmışlara oldur mu'în

İsen, Mustafa, Sultanların Şiirleri, Şiirlerin (Sultanları.٢٠١٢. İstanbul)

ثم يكتب لنا السلطان "مراد" بيتين بين ثنايا قصيدته وكأنه أراد أن يصعد إلى السماء قليلًا من شدة العتاب.

- تفتح أبواب السماء، (semavatin kapıların açarlar)

- تنزل الرحمة على المؤمنين. (müminlere rahmet suyun saçarlar)

أراد أن يُعَبِّرُ عن كثرة الرحمات النازلة في وقت الفجر، فعبر بأبواب السماء، ولم يعبر ببابٍ واحد وكأن رجاءه في رحمة الله ليس له حدود بينه وبين الله عند صلاته للفجر لوقتها، وجعل هذه الرحمة خاصة بالمؤمنين، ولا يوصف بالإيمان إلا المتعبدون لله كثيرًا، الذاكرين على الدوام، المحبين للطاعة، وهو يرجو أن يكون واحدًا منهم، وفي هذين البيتين بعض الرسائل، منها:

أنَّ الرحمة تصيب المؤمن إذا فزع لصلاة الفجر لوقتها.

أنَّ الأمر عظيم في وقت صلاة الفجر فكيف لا ننتبه لذلك ونعد أنفسنا كل يوم لهذا الأمر العظيم فما أعظم رحمة الله؟!

أنَّ صلاة الفجر نور يشق السماء؛ فيفتح أبوابها، فتنزل الرحمات، هل من مستيقظ يقف بين يدي الله حتى ينهل منها؟

شبه أبواب السماء وكأنها أبواب خزائن يجزى منها مَنْ قام من فراشه توضأ وصلى فجره لوقته، ولم يؤخره.

وتذكر المصادر التركية أنَّ هناك ارتباطًا وثيقًا بين الأشعار الصوفية وما يمارسه الناس في حياتهم الدينية اليومية، فالأشعار

الصوفية ولاسيما تلك التي كتبت بداية من القرن الثاني عشر الميلادي، كانت تحوي بين ثناياها الدعوة إلى التمسك بأوامر الدين ولاسيما الفرائض، مثل: الصلوات، وأداء حقوق الله وحقوق الناس، والنهي عن ترك الفرائض، وأيضًا الابتعاد عن المعاصي.١٣

والبيت الآتي بين ثنايا القصيدة يكرر فيه السلطان ويذكر صلاة الفجر صراحةً، وأنها ذات خصوصية قائمة بذاتها، فيقول في هذا البيت:

ولمن قام الفجر تعطي الحلة. (yedi iklim benim deye güvenme)

ما زال يعرض الجوائز التي يفوز بها مَنْ حافظ على صلاة فجره لوقتها، ويُعَبِّرُ عن الاستعداد لها وأدائها بقوله مَنْ قام والقيام معروف يكون لشيء مهم، وله وقعه داخل نفس المؤمن، فلو سيطر على الإنسان الخوف لا يمكنه أن يرقد، ولا ينام كذلك لو أن المؤمن خاف من عقاب ربه بتفويته لصلاة الفجر ما استطاع النوم ولا الغفلة.

إنَّ من قام ووقف بين يدي ربه خوفًا وطمعًا خشية ورجاءً، وهذا حال المؤمن، ونستخلص من هذا البيت ما يفيد في حياة المؤمنين، وهو على النحو الآتي:

أن قيامك لصلاة الفجر لوقتها لن يضيع هباءً ، إنما له أجره العظيم.

أن الحلة المقصود بها هنا هي حلة الجنة، وهي تعني أن زينة الجنة وبهاءها إنما يكون للمؤمنين المؤدين صلاة فجرهم لوقتها.

أن صلاة الفجر هي بداية لخمس فرائض على المؤمن في اليوم والليلة، فلو فرط في الأولى فرط في بقية الفرائض، ولو أداها لوقتها أدى بقية الفرائض كذلك لوقتها.

أن الجزاء على صلاة الفجر لوقتها لا يعلمه إلَّا الله، وإنما الجزاء المذكور بأن له حلة الجنة إنما هي رمز لباقي الجزاء العظيم الذي سيناله المؤمن.

ويكرر السلطان البيتين اللذين هما القوام الرئيس للقصيدة، وأخذنا منهما عنوان القصيدة، وهما:

- أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي، (uyan ey gözlerim gafletten uyan)

- أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي. (uyan uykusu çok gözlerim uyan)

وهذا التكرار إنَّما دلالة على شدة الشعور بالندم والحسرة على فوات الخير الكثير بتركه لصلاة الفجر لوقتها.

ثم يبدأ السلطان كتابة أول الأبيات الدالة على الزهد بقوله:

هذه الدنيا فانية؛ فحذاري أن تنخدعي. (bu dünya fanidir sakin aldanma)

موجهًا خطابه لعينه، وكما أسلفنا بأنه عدها بمنزلة إنسان يسمع ويعقل ويحسن التدبير والتفكير مذكرها بأنها دنيا فانية ذاهبة غير آتية مدبرة غير مقبلة فحذاري من خداعها وزخرفها وزينتها

ومتاعها الفاني، وهو يرسل لنا عبر هذا البيت الزاهد الجميل بالرسائل الآتية:

أنَّ الحياة الحقيقية هي الآخرة أما دنيانا فهي مؤقته بوقت محدد له بدايته ونهايته فلا تغرنكم.

أنَّ الدنيا لها وجوه كثيرة تفتن من استسلم لوجهٍ واحد؛ لذا احذروا من مثل هذه الوجوه الخداعة.

نعيم الدنيا هو جهد وبلاء وعناء فمثلًا السلطة والمال والأولاد والافتخار بالأحساب كل هذا يرجع على الإنسان بالهم والحزن؛ لما يتطلبه للحفاظ عليهم من انشغال دائم، وجهد مستمر.

لو أنَّ الدنيا فيها راحة فإنَّما هي إلَّا راحة الإيمان، ومن طلب في غير الإيمان راحةً فقد طلب المستحيل.

ويرد ذكر فناء الدنيا وزوالها بين ثنايا قصيدة للسلطان "مراد الثاني" وهو الجد السادس للسلطان "مراد الثالث"، والتي يذكر فيها بأنَّ المسلم يجب أن يكون همه هو ذكر الله، والإعراض عن الانغماس في ملذات الدنيا الفانية، وهذا أيضًا يدلل على ما ذهبنا إليه سابقًا بأنَّ السلطان "مراد الثالث" قد ورث ذلك الزهد عن طريق أجداده حتى وإن كان هذا هو الظاهر لنا من خلال أشعارهم، فنحن نحكم عليهم من خلال ما وصل إلينا من أشعارهم، أما كيف كان حالهم على حقيقته، فيعلمه الله ربما كانت تلك الأشعار تعبر عن أماني تجول بداخلهم يسعون أو يحلمون بتحقيقها، فيقول السلطان "مراد الثاني":

دعنا نذهب، ونذكر المولى ليوم أو يومين.

هل هم أصدروا الأمر لنا بهذه الدنيا الفانية؟

Varalım bir iki gün zikredelim Mevlâ'yı

?Bize ısmarladılar mı bu yalan dünyayı

(Yedikıta dergisi .İstanbul. ٢٠٠٣)

ويكمل السلطان "مراد الثالث" قصيدته "أفيقي يا عيني" سائرًا على خطى الزهد، فهو ما زال يحذر عينه من السير خلف أحد أبواب الفتنة في الدنيا الفانية، وهو باب السلطة، فيقول:

- إياكِ أن تغتري بالتاج والكرسي. (mağrur olup taç-u tahta dayanma)

وكأنَّ السلطان هنا يُعَبِّرُ عن حاله وما يخصه هو شخصيًا، فهو السلطان صاحب التاج والكرسي إذًا هنا السلطان وكأنَّه يحاصر عينه، ويقول لها أنا "مراد الثالث" وأنتِ عيني، ولا أحد من البشر ثالث معنا، فإذا لم أحبس تطلعاتكِ نحو السلطة والتاج والكرسي فلا يمكنني أن أنصح غيري؛ لذا السلطان هنا أراد أن يكون هو القدوة وينصحنا على النحو الآتي:

إنَّ الغرور هو أول خطى الهلاك لصاحبه.

إذا لم يتذلل العبد لربه واضعًا أعلى وأغلى شيء وهو رأسه على التراب ساجدًا لربه، فمصيره الهلاك.

العبد الصادق مع الله ومع نفسه ينسى كل متاع الدنيا الفانية إلَّا أنَّه لا ينسى أن يقف بين يدي ربه ساجدًا عابدًا.

إذلال المؤمن لنفسه بين يدي ربه يخلصه من الكبر على الناس، وكأنها رسالة مهمة لعلاج مَنْ تُصيب نفسه شمة من كبر.

كذلك أيتها العين، لا تنظري من أعلى، إلى ما أوكله الله إليَّ من سلطة وحكم، فلا يحق لي، ولا لكِ الفخر بأي شيء وهبنا الله إياه بلطفه ومنته، فيقول السلطان هذا البيت وهو ما زال يجلد نفسه وعينه داعيًا إياهما إلى الزهد، بل آمرهما بذلك فيقول:

ولا تفتخري بأن يكون العالم تحت سلطتكِ. (yedi iklim benim deye güvenme)

بعد أن دعاها ألا تغتر يدعوها هنا ألا تفتخر، فالغرور هو نسيان الحقيقة وادعاء استطاعة النفس القيام بأشياء ليس لها طاقة بها، والافتخار هو ادعاء زائف بأن هذه الخيرات إنما هي نتيجة عمل ذاتي قام به صاحبه دون إرجاع فضله لله -عز وجل- وأنَّه هو مَنْ وهبه وأعطاه لعبده؛ لذا أيتها العين، يا مَنْ تظنين أن سيطرتكِ وسلطانكِ على العالم يجعلكِ تنسين صاحب الفضل والمنة والعطاء والهبة إنما هو الله. ونستخلص بعضًا من رسائل السلطان "مراد الثالث" في هذا البيت كالآتي:

١- إنَّ الإنسان إذا لم يرجع الفضل لله في تلك النعم التي وهبها إياه، وافتخر من باب إنما أوتيته على علم عندي؛ فليعلم حينها أنَّه أورد نفسه المهالك.

٢- إنَّ العبد ضعيف فعند وجود الخير بين يديه إذا لم يستيقظ من غفلته متذكرًا بأن ما يحوزه إنما هو فتنة واختبار وافتخر بما لديه من نِعم إنما هو يسير في ركاب الضالين.

٣- إنَّ العبد المؤمن الصالح المحافظ على صلواته ولاسيما فجره لوقته مهما بلغ من مناصب عليا حتى صار سلطانًا عليه ألا يفتخر ولا ينسى أبدًا أنَّ ما هو فيه إنما هو هبة وعطاء من ربه.

أيها المؤمنون لو حافظتم على صلاة فجركم لوقتها ما افتخرتم ولا أعجبتم بأعمالكم، فما أنتم إلا فقراء محتاجون أذلاء بين يدي ربكم وإلا فأنتم لستم زاهدين، ولا تاركين متاع الدنيا وراء ظهوركم ومقبلين على رحمة ربكم.

ونجد مثل ما ذهب إليه السلطان "مراد الثالث" من زهد في الحكم والسلطان هو نفسه هو عند جده الخامس السلطان محمد الفاتح، فيقول في إحدى قصائده:

إنَّ نيتي هي الامتثال لقوله تعالى: (الجهاد هو الفلاح).

وإن همتي هي همة مطلقة لدين الإسلام.

İmtisâl-i "Câhidû fllâh" olupdur niyyetüm.

Dîn-i İslâm'ın mücerred gayretidür gayretüm.

(Yedikıta dergisi .İstanbul. ٢٠٠٣)

فكل شيء يحدث في الدنيا من حول السلطان "مراد الثالث" مرده أنه لحكمة عالية جليلة تليق بعظمة الخالق لكل الوجود، فهو الهادي لعباده الفقراء أمثال السلطان "مراد الثالث"، ويُعَبِّرُ عن هذه الحالة من خلال قصيدته مناجاة أيضًا على النحو الآتي:

إنها حكمة مبدئ كل الوجود.

هو سلطان الهدى للجميع.

Hikmetidir mübdi'-i küll-i vücûd

Cümleye sultân-ı Hudâ ol durur

İsen, Mustafa, Sultanların Şiirleri, Şiirlerin (Sultanları.٢٠١٢. İstanbul)

ثم يكتب السلطان "مراد الثالث" مكررًا للبيتين الرئيسين بين ثنايا قصيدته "أفيقي يا عينى" كالآتي:

- أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي، (uyan ey gözlerim gafletten uyan)

- أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي.(uyan uykusu çok gözlerim uyan)

إنَّ حالة الزهد جعلت من السلطان "مراد الثالث" ينظر إلى ذنبه الذي اقترفه بتركه صلاة فجره لوقتها، وكأنه سيموت اليوم، ويحاسب حسابًا عسيرًا، وهذا ديدن أهل الزهد في أن يجلدوا أنفسهم، بل ويذلوها لمجرد تفريطها في جنب ربها ولو بفرض واحد لم تؤده لوقته.

ويأتي بعد ذلك بيت بين ثنايا القصيدة معبرًا عن حالة من الانكسار والذل بين يدي الله، وتحقير النفس، وتصغيرها لما ارتكبته من تفريط لعبد ضعيف محتاج لكرم ربه عليه؛ ليستره بستره، ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فيقول السلطان "مراد الثالث".

- إنني أنا عبدك مراد اغفر لي ذنبي. (benim, murat kulun, sucumu affet)

توجه السلطان "مراد" مخاطبًا ربه سالكًا طريقًا، يحبها الله من عبده، فيقول ربنا علم عبدي أنني ربه، فناداني، ودعاني، فلبيك يا عبدي، يا مَنْ علمت أنني أنا ربك فناديتني، وكأن حالة الزهد ذهبت بالسلطان "مراد الثالث" إلى حالة وجدٍ ونسيان ذاته بين يدي ربه فدعاه طالبًا منه مباشرة دون واسطة أن يغفر له ذلته، والتي تحولت لذنب بتركه لصلاة فجر يوم واحد لوقتها، فالخوف يحيط بالسلطان من كل جانب من أن تتخلى عنه رعاية الله فيلقى ما لا يحمد عقباه في دنياه وأخراه، ومن بين ثنايا البيت نأخذ بعضًا من رسائله.

١- إنَّ العبد مهما حل على رأسه من هَمٍّ أصابه، أو حزن لحق به عليه التضرع والتوسل لربه مباشرة دون انتظار.

٢- إنَّ العبودية شرف للمؤمن يمُن بها الله على من يشاء؛ لذا علينا أن نذكر أننا عبيد، ويكون هذا هو عنوان الفخر للمؤمن.

٣- لا تيأس عندما تعصي ربك عليك بالرجوع عن معصيتك من فورك دون انتظار طويل فربما الموت يأتي فجأة.

اعلم أن ربك يفرح بتوبتك والعزم على عدم الرجوع إلى مثل هذه المعاصي والذنوب مهما كبرت شريطة أن تؤدي حق الوقوف بين يدي ربك، وتحقق شروط التوبة.

وهذا الاعتراف بشرف العبودية والإقرار به نجده بين ثنايا أبيات قصيدة للسلطان بايزيد الثاني وهو الجد الرابع للسلطان "مراد الثالث" يرسل رسالة بأن ما يجب أن يكون عليه حال المسلمين هو التزلل بين يدي رب العالمين، وأن الشرف الأكبر والفخر

الأعظم للسلطان و إقرارة بأنه عبد فقير من عباد الله يرجو مغفرته ورحمته، وأن يشمله بالرعاية والعطف، ويوفقه لما يحب ويرضى، ويذكر هذا بين ثنايا قصيدته مخاطبًا ربَّه، كالآتي:

يصير ملكًا من أصبح عبدًا لك.

فالملك الذي لا يكون عبدًا لا يليق به إلَّا عبودية الحكم.

Şeh oldur ki kulluğun etti senin

Kulun olmayan şeh gedâ yaraşur

(Yedikıta dergisi .İstanbul. ٢٠٠٣)

ويكرر السلطان "مراد الثالث" من خلال قصيدته "أفيقي يا عيني" دعاءه لربه بأنْ يتجاوز عنه، ويغفر له ذلته وخطأه، ونسيانه بتركه صلاة فجره لوقتها قائلًا:

اغفر لي ذنبي، وارفع عني خطيئتي. (sucum bağışlayıb günahım ef et)

إنَّ تكرار الدعاء بطلب المغفرة يُعَبِّرُ عما يجيش به صدر السلطان، وما يرمو إليه فؤاده، وما يعتري تفكيره بأنَّ همه الأعظم هو أن يشعر بأنَّ ربه تجاوز عن ذنبه وغفر له.

ويستمر السلطان في دعائه لربه، وهذا من علامات التصوف الحقيقي وليس الزائف، فنحن أمام سلطانٍ حيزت له الدنيا تحت سلطته، ومع ذلك يرجو ويدعو ربه بما لا يدعوه أناسي كثير؛ لذا لا غرابة عندما يصنف السلطان "مراد الثالث" أنَّه من أهل الصفة، وهذا ظاهر وبيّن بين ثنايا تلك القصيدة، ويكمل قصيدته قائلًا:

- واحشرني تحت لواء الرسول. (resul'un sancağı dibinde haşr et)

وفي هذا البيت إشارة مهمة جدًّا أنَّ حب الرسول مسيطرٌ على قلب السلطان، فأقصى أمانيه أن يكون معه يوم القيامة، وعبر بلواء الرسول ربما أراد أن يصور يوم الحشر ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسير، ويُرفع إلى جواره لواء الإسلام بقيادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يشبهه بما تربى هو عليه وعاشه كثيرًا بصفوف المؤمنين وجيوشهم عند خروجهم للنصر، فأراد أن يستحضر تلك الصورة ويعبر بها في مشهد جميل دالٍ على الآخرة، فمن يسير خلف رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لا شك أنَّه من أهل النصر والظفر بالجنة.

وتذكر المصادر التركية أنَّ أكثر الأشعار الصوفية التركية يذكر فيها كثير من الأخلاق الطيبة التي يجب على المسلم التحلي بها، ومنها: الصبر، والرضا، ومراقبة الله، والتوجه إليه، والإخلاص له، كذلك الميل إلى العزلة، وكثرة الذكر، والقناعة، وترك متاع الدنيا الفاني إلَّا الضروري منه. ١٤

ويختم السلطان "مراد الثالث" قصيدته بنفس البيتين الرئيسين:

- أفيقي يا عيني، من الغفلة أفيقي،(uyan ey gözlerim gafletten uyan)

- أفيقي يا عيني، التي كثر نومها أفيقي. (uyan uykusu çok gözlerim)

كم أنَّ شعور السلطان بالندم والتحسر لما فاته من خير وفير كان له أثره في نفسه، وفي كتابته لهذه القصيدة، وإني لأرى بأن حال السلطان "مراد الثالث" عند كتابته لهذه القصيدة يتلخص في النقاط الآتية:

١- إنَّه كان منذ سنين مديدة لم تفته صلاة الفجر لوقتها.

٢- إنها تمثل له ذكريات جميلة جدًا إيمانية عظيمة من أنه كان يصلي هذه الصلاة أثناء خروجه للحروب والمواقف بالغة الشدة.

٣- إنه علم أن راحة نفسه في ذلك العتاب وهذا الندم لنفسه متمثلة في عينه.

٤- إن هذه القصيدة هي عنوان الصوفية للسلطان "مراد الثالث"، وأن هذه الصوفية تعلمها منذ الصغر مثله كبقية الأمراء الذين يجب عليهم تلقي العلوم منذ صغرهم، ويظهر أنَّه تأثر كثيرًا بالتصوف وعلومه حتى صار واحدًا من الزهاد.

٥- إنَّ السلطان "مراد الثالث" يضع الخطوط العريضة لمن سيرثه على عرشه، ويتولى أمر شعبه من بعده؛ أن هذا الكرسي، وذلك التاج - ضمان بقائهما، هو صلاة الفجر لوقتها فإنْ حَسُن أداؤها كانت كذلك كل الأعمال؛ فينتج عن ذلك طاعة وإخلاص الحاشية، ومن ثم الشعب.

٦- إنَّ السلطان "مراد الثالث" سار على خطى أجداده بأنَّ الدين هو عماد الخلافة العثمانية والضامن لبقائها وديمومتها.

٧- وفي النهاية قد تكون صلاة الفجر لوقتها تمثل للسلطان "مراد الثالث" ذلك التوازن الداخلي لنفسه، فبينما عنده من ملذات الدنيا

ما لا يمكن تركه، وبالفعل ينهل منه حظه إلَّا أنه يجعل من كل هذا بابًا للمهالك لو شغلته عن الأسس التي تضمن له بقاء سلطانه ودولته ألا وهو أداء حقوق ربه، وأهمها: وقوفه بين يديه في قيام ليلٍ حتى أذان فجرٍ يتوج عبادته كلها ويزينها.

وإني لأري أنَّ السلطان "مراد الثالث" ورث عن أجداده تلك النصائح المهمة جدًّا فيما يخص شئون حكمه والمحافظة على دولته، وأنهم وضعوا نصب أعينهم المحافظة على ملكهم من خلال تقديمهم لما يأمرهم به دينهم عما سواه حتى وإن كانوا يميلون إلى الدنيا بحب السلطة قبل حظهم منها من متاع إلَّا أن الدين هو الضمانة الوحيدة للحفاظ على ما ورثوه من أجدادهم، ونصرهم على عدوهم، إنَّ هذا الاتجاه الديني للسلاطين عبر عصورهم جعل لديهم قابلية كبيرة للميل إلى التصوف ودراسة أصوله وفروعه والاستعانة به في حكمهم وحفاظهم على التكايا والدراويش وحمايتهم، بل وتقديمهم ورفع قدرهم في مواطن كثيرة عمن سواهم من العامة.

الخاتمة

كان هدفي أثناء كتابة هذا البحث أنْ أجيب عن بعض الأسئلة التي افترضتها علينا دراستنا لهذه القصيدة، وكان أهمها: هل كاتب بقدر السلطان "مراد الثالث" في حاجة لأن يعبر عما يجول بنفسه من ندم وحزن على إضاعة صلاة الفجر لوقتها؟ وهل كان هذا يستلزم منه كتابة قصيدة معبرة عن هذا الموقف؟ وهل كان لصوفية السلطان "مراد الثالث" تأثيرٌ فيه أثناء كتابته لهذه القصيدةوهل الرسائل التي أراد السلطان مراد الثالث إرسالها عبر

قصيدته "أفيقي يا عيني كان لها تأثير في نفسية القارئ وهل جنى المستمع ثمارها؟ وأجبنا بين ثنايا البحث كالآتي:

أ)- أنَّ السلطان عند كتابته للقصيدة نسى أنَّه سلطان، وإنما كتبها بوصفه عبدًا فقيرًا متذللًا بين يدي ربه.

ب)- وأنَّ تعبيره من خلال هذه القصيدة كان بهدف إراحة نفسه، والتخلص مما تعانيه من تأنيب وعذاب.

ج)- بما أنَّه شاعر متصوف وجد في كتابة أبيات شعرية صوفية جميلة دعوة لأن يكون واعظًا للناس ولنفسه، مفسرًا من خلال هذه القصيدة بأن الإيمان يلزمه عمل وعبادة وعدم تفريط.

د)- ظهرت الصوفية بقوة على شاعرنا أثناء كتابته لقصيدته، وكان هذا جليًا عندما ذكر ما يُعَبِّرُ عن الزهد في الدنيا، والسعي للآخرة.

هـ)- إن الرسائل بين ثنايا القصيدة عديدة ومباشرة تنفذ إلى صدور المسلمين ،وكان مفادها أن عليهم أخذ العظة والعبرة لما آل إليه حال السلطان "مراد الثالث" من حزنٍ وندمٍ ،وكأنه يقول لهم إني ناصحٌ لكم لكيلا يصل بكم الحال لما وصلت إليه فلا تفرطوا في صلاة الفجر لوقتها .

و)- وبالطبع هذه الرسائل ستؤتى ثمارها لأنها صادرة عن نفس محاطة بندمٍ وحزنٍ شديدين ،فتأثر السلطان ظاهرٌ جلى وحالته يرثى لها لذا أي مسلم لديه الحد الأدنى من الصلة بالله إذا لم يتأثر بمثل هذه الرسائل فعليه أن يراجع نفسه ويعرف ما وصل إليه حاله من تقصيرٍ وبُعد عن الله .

المصادر والمراجع:

[١] wiki.https//tr.m.wikipedia.org
[٢] - Tarih.https//Listelist.com
[٣] - N.Saka oğlu .Devletin sultanları. ٢٠٠٧.İstanbul .Nisa yay"
[٤] - Ak koskon , sultan şairleri . Ankara . ٢٠٠١ . Akbıyar yay"
[٥] - Arslan Özgen. Tasavvuf Şairleri. İstanbul. ١٩٩٤. YkY yay"
[٦] - Mustaf Kara. Tasavvuf ve Tarikatlar Tarihi . İstanbul . ١٩٩٠ . Degah yay"
[٧] - Ali Bekir. Sultanların sözleri. İstanbul . ١٩٨٥. Bayani yay".
[٨] - Uçman kbdullah. Tekke şiiri Büyük Türk klasikleri. C,٢.İstanbul. ١٩٨٥. Ötüken yay"
[٩] - D. Kurşun . Sultan Muradın şiilerinden. İstanbul . ١٩٩١. AYSUN yay"
[١٠] - İskander Pala. Ansiklopadık Divanı Şiiri sözlüğü. Ankara. ١٩٩٥. Akçağ yay"
[١١] -H. Ahmet. Üçüncü Maradın divanı . Ankara .١٩٨٧ . Ata yay"
[١٢] - F. Özcin. Osmanlıların döneminde şiir. İstanbul. Diyanet ilmi Dergi. ١٩٩٨.
[١٣] - Yakup şafak. Tasavvufçu Şiirde Mecazi anlatım üzerine. İstanbul. ١٩٩٨. Yedi İklim yay"
[١٤] - İskander Pala. Ansiklopadık Divanı Şiiri sözlüğü. Ankara. ١٩٩٥. Akçağ yay"
*(Özlem Güner . Padişah III. Murad .İstanbul. ٢٠٢١. Turan yay")
*(Http//Wiki.tr.m.wikipedia.org)
*(İsen, Mustafa, A. F. Bilkan, T. I. Durmuş (٢٠١٢). Sultanların Şiirleri, Şiirlerin Sultanları. İstanbul: Kapı Yay. ١٤٦.)
*(Https//Mawdoo٣.com))